كل ما يطمح له المرء في هذا العصر يتحقق عن طريق السلام

عصر السلام

السلام هو الثقافة والخيار الوحيد للإنسان والكون

مولانا وحيد الدين خان

ترجمة الدكتور عمر أحمد وطارق بن ساسي

من منشورات جمعية الرسالة

عصر السلام

السلام هو الثقافة والخيار المثمر
للإنسان والكون

عصر السلام

السلام هو الثقافة والخيار المثمر
للإنسان والكون

تونس
2021

الكتاب: عصر السلام.
المؤلف: وحيد الدين خان.
الترجمة: د. عمر أحمد، أ. طارق بن ساسي، مصطفي زقيره.
المراجعة اللغوية: أ. د. عبد الله على الصويعي.
الناشر: جمعية الرسالة.
الطبعة الأولى، 2021م.
المعرف الدولي للكتاب : ISBN : 978-9938-59-922-0
هذا الكتاب ترجمة لكتاب : (Age of peace) الصادر عن

Goodword Books, Hyderabad
Tel. +91 4023514757
Mob. +91 7032641415, +91 9448651644
Email: hyd.goodword@gmail.com
Goodword Books, Chennai
Tel. +91 4443524599
Mob. +91 9790853944, +91 9600105558
Email: chennaigoodword@gmail.com
Islamic Vision Ltd.
434 Coventry Road, Small Heath
Birmingham B10 0UG, U.K.
Tel. 1210137-773-, Fax: 1218577-766-
e-mail: info@ipci-iv.co.uk,
www.islamicvision.co.uk
IB Publisher Inc.
81 Bloomingdale Rd, Hicksville
NY 11801, USA
Tel. 5161000-933-
Fax: 5161200-933-
Toll Free: 13222-560-888-
email: info@ibpublisher.com
www.ibpublisher.com

تم طبع وإنجاز هذا الكتاب في
SOTEPA GRAFIC
12 نهج الخيرية ـ 1002 تونس البلفيدير
البريد الالكتروني sotepagraphic@yahoo.fr

فهرس الكتاب

مقدمة الكاتب 11

الفصل الأول:
السلام من أجل إحلال السلام

السلام في السلمية 17
السلام هـو الخير الأسمى 20
السلام والعدالة 24
قوة السلام 27

الفصل الثاني:
بزوغ عصر السلام

عصر انتهاء الاحتكارية 33
الحضارة الغربية 36
عصر البدائل 39
عصر الحضارة 42
رحلة الحضارة 44
اجعل من عدوك صديقاً 47

الفصل الثالث:
مناهج عدم المواجهة من أجل إحلال السلام

حكمة الخالق من الخلق 53
سياسة المشاركة اللاتصادمية 55

سياسة المفاصلة (الفصل) 58
قوة السلام أعظم من قوة العنف 61
الأمثلة التي قدمها النبي صلى الله عليه وسلم 64
استراتيجية العزل 67

الفصل الرابع:
شهادة التاريخ

بين المثالية والبراغماتية 73
التخطيط المبني على الحقائق 75
أنشطة العنف وأنشطة السلام 79
تنبؤ ثبت صدقه 82
حرب لا تنتهي 85
مشكلة إدارة الأزمات 87
الحفاظ على الوضع الراهن 90
دروس من التاريخ 93

الفصل الخامس:
الحاجة إلى أيديولوجية في مواجهة أيديولوجية العنف

قضية المسلمين المعاصرين 99
لحاجة إلى قنبلة أدبية «فكرية» 102
تجنيد الشباب للتطرف 106
شرورالإعلام الموجه 110
العمليات الانتحارية 114
زاوية النظر 117
الحياة في هذا العصر 121

لماذا ينضم الشباب إلى الجماعات الإرهابية؟ 123
السلام عن طريق التعليم 127

الفصل السادس:
السلام في الإسلام

الطمأنينة هي الأهم 133
جدول أعمال لم يكتمل 136
منهج الجنرال ديجول 139
المعيار العالي والمنخفض 142
الطريق إلى السلام 144
الحروب الصليبية نقطة تحول 147
نموذج الفاتيكان 150
ما ينفع النفس وما يضر بها 151
ثقافة الإرهاب 158
تجربة شخصية 160

الفصل السابع:
الإسلام والسلام

الإسلام دين السلام 167
التكافل قانون الطبيعة 170
الشر الأعظم في التاريخ 172
والله يدعو إلى دار السلام 175
التدبير الإلهي للتاريخ البشري 177
المركز العالمي للسلام 180
ملحق: خطة الله في الخلق 185

تقديم

يسرنا أن نقدم للقارئ العربي ترجمة كتاب عصر السلام، لمؤلفه الشيخ وحيد الدين خان، والمؤلف عرفه الكثيرون من خلال كتابه الإسلام يتحدى، مع أن كتبه الأخرى لها أهمية كبرى، عالجت قضايا حساسة في فهم الدين وتجديده، مثل «تجديد علوم الدين»، أو كتبه في فهم العصر والبصيرة بالزمان وتوجيه العمل الإسلامي لميدان الجهاد الحقيقي، وهو نصرة دين الله من خلال نشره، والدعوة إليه، ونبذ أسلوب العنف والتطرف ولزوم سبيل الحكمة والصبر، ومن كتبه الهامة «الإسلام والعصرالحديث» و«وواقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام»، و«قضية البعث»، و«حكمة الدين»، و«التفسير السياسي للدين»، وغيرها الكثير، أي له من المؤلفات ما يناهز المائتي مؤلف بالأردية، ترجم الكثير منها للأنجليزية، ومازال الشيخ وحيد الدين يقوم بالكتابة والتأليف، رغم تقدمه في السن، ومازالت مجلة «الرسالة» التي يكتبها منذ ما يقارب النصف قرن بالأردية والأنجليزية Spirt of Islam تصدر إلى اليوم، وقد تميزت مؤلفات الشيخ وحيد الدين خان، ببساطة الأسلوب وعمق المضمون، وهي نتاج دراسة معمقة، لمصادر التراث الإسلامي والمصادر العلمية الحديثة، فلقد عكف المؤلف على دراسة كتب أهم الفلاسفة المعاصرين، فقرأ عن الماركسية ألآف الصفحات حتى أنه قرأ كتاب الرأس مال لماركس، وألف في الرد على الماركسية كتابه: «الماركسية في الميزان»، ومن أجل الرد على الفيلسوف البريطاني برتراند رسل قام بقراءة كل أعماله، وله

ردود عليه في مواضع متفرقة، وفي هذا الكتاب يسعى المؤلف لإعادة برمجة العقلية المسلمة لفهم العصر، والعمل على بصيرة، والاستفادة من الإمكانات والفرص التي سخرها الله لنا في هذه الأزمنة، والبعد عن ميادين العمل السلبي القائم على العنف ورد الفعل، والكتاب دعوة لتبني المنهجية السلمية لنصرة الدين وخدمته. وقد ألحقنا بهذا الكتاب ترجمة مقال بعنوان :«خطة الله في الخلق»، لما لها من علاقة بموضوع الكتاب.

طارق بن ساسي

طرابلس 12 /01/ 2021م

مقدمة الكاتب

في الثاني عشر من يناير سنة 2015م، كنت طريح الفراش في مستشفى ماكس بنيودلهي، أعاني من آلام حادة بعد إجراء عملية جراحية. حينها دخل الطبيب غرفتي وقال: «لا تقلق، إنها مجرد فترة مؤقتة، وقريباً سيصبح كل شيء عاديًا».

لم أنم طيلة تلك الليلة، وظلت كلمات الطبيب حاضرة تجول في خاطري وتفكيري. وبدأت أمعن النظر والتفكير في الذين انخرطوا في أيامنا هذه - في حرب مقدسة منفردة ذاتية (من جانب واحد)- أولئك الذين يقترفون أعمال عنف تستهدف أناساً آخرين في كل مكان، في أماكن العبادة أو الأسواق أو الفنادق أو الأماكن العامة، وحتى المقابر. إن العنف الذي قام أولئك بإطلاقه أدّى إلى قتل وحشي لعدد كبير من الناس الأبرياء. وعندها تذكرت آية من القرآن الكريم تخبرنا بأن قتل نفس بشرية واحدة مساو لقتل البشر جميعاً، قال تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً..**﴾، (المائدة: 32)، ويوجد اليوم أكثر من سبعة مليارات نسمة حول العالم، وذلك يعني أن أولئك الذين يقتلون ولو نفسا واحدة يستحقون عقوبة قتل سبعة مليارات نفس بشرية، وعندما خطر ذلك في ذهني كنت في غاية الكرب والحزن، وسألت نفسي كيف لأولئك الذين يقتلون الآخرين تحمل مثل ذلك العذاب القاسي الأليم.

ما هو السبب وراء خطورة قتل النفس البشرية؟ إنه بسبب أن هذا الأمر أي (قتل الأنفس) هو شأن ينسب في الظاهر للكائن

البشري (الإنسان)، ولكن في الحقيقة هو شأن خاص يعزى مباشرة لله تعالى. وذلك يعني أن قتل النفس البشرية معادل للاعتراض على تدبير الله وسنته في الخلق. فهذا القتل للنفس البشرية معناه حرمان الشخص من فرصة عيش حياته إلى منتهاها، والقيام بأداء دوره المقرر له من قبل خالقه. وعندما يقضي الشخص عمره كاملاً كما منحه له الخالق، يكون قادرا على القيام بالدور المنوط به في هذا العالم.

في الواقع، إن منح الحياة أو سلبها يعزى مباشرة لله تعالى، وبمجرد أن يعي المرء خطورة ذلك الأمر، فلن يجرؤ مطلقا على الإقدام على قتل أي شخص.

وعندما فكرت في تلك المسائل، فكرت ملياً في قضية أولئك الذين يقترفون التفجيرات الانتحارية، إنّ الأعمال الانتحارية غير مشروعة في كافة الأديان والنظم القانونية في العالم، ووفقاً لحديث نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم إنّ من يقدم على الانتحار فمصيره الخلود في النار، توقفت عند ذلك التفكير، وبدأت دموعي تنهمر من عيني وقلت في نفسي كيف لأولئك الذين يقترفون الانتحار تحمل آلام أبدية في عالم الآخرة، بينما أنا لم أكن قادراً على تحمل ألم مؤقت أقل شدة وربما أقل ألماً؟

قد روى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث التالي:

«كنا برفقة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة، وكان معنا شخص يدعى قزمان بن الحارث، كان قد اعتنق الإسلام، وأثناء المعركة عانى من جروح كثيرة، وبدأ الناس يمدحونه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشجاعة التي أظهرها في الحرب، ولكن النبي صلى

اللـه عليه وسـلم قال:« إنـه من أهل النـار»، (البخاري- كتـاب المغازي)، أي أنـه أحـد أهـل النـار بالتأكيـد، فـكاد بعـض النـاس يرتابـون، فذهبوا ليتحققـوا، فعرفـوا أن الرجـل لم يتحمـل آلام الجـراح، فأهـوى بيـده إلى كنانتـه فاسـتخرج منهـا سـهما فنحـر به نفسـه، (حـال قزمان هـي حالة انتحـار)، وعندمـا أخـبر النبي صـلى الله عليه وسـلم به قـال: «الله أكبر، أشـهد أني عبـد الله ورسـوله.»[1]

تلـك كانـت ليلـة مروعـة بالنسـبة لي، فقـررت في تلـك الليلـة وبعد تماثلي للشـفاء، سـيكون أول عمل أقوم به هو تأليف كتاب عن السـلام، فـكان هـذا الكتاب نتيجة لذلك القـرار الذي اتخذته وأنـا طريح الفراش بالمستشفى.

إن الغـرض مـن هذا الكتاب هو إعادة بناء الوعي، أوإعادة تشـكيل تلـك العقـول التي تفكـر بمصطلحات العنف، إن هـدف الكتاب أن يعي مثـل أولئـك الأفـراد أنـه بإمكانهـم النجاح بشـكل كامل بطرق ووسـائل سـلمية لتحقيـق ما لم يكونـوا قادرين على تحقيقه بوسـائل العنف.

أتقـدم بالشـكر والعرفان الخاص للسـيدتين اللتين سـاعدتاني بشـكل كبـير في إعـداد هـذا الكتـاب، الدكتـورة فريـدة خـان، الأسـتاذة بالجامعة الإسـلامية الملية نيودلهـي، وماريـة خـان المتحصلـة عـلى البكالوريس في الفيزيـاء، التـي تتابـع دراسـة الدكتـوراه في الدراسـات الإسـلامية بجامعة هامدارد-نيودلهي. كما أتقدم بالشـكر إلى عزيز أحمد الذي قرأ مخطوط الكتـاب وعلـق عليـه، بـارك الله فيهـم أجمعـين وجزاهم اللـه خيراً.

وحيد الدين خان نيودلهي

26 يونيو 2015م

1 - صحيح البخاري، حديث رقم (3062).

الفصل الأول:

سلام من أجل إحلال السلام

السلام في السلمية

السلمية مبدأ تبناه كل أولئك الذين وجدوا في الحرب وكل مظاهرها شرورا مقيتة، كالعنف والدمار وفقدان الأرواح على وجه الخصوص، وإعدام الوجود الإنساني، وقد عُدّ السلام عبر العصور والأزمنة القديمة موضوع مصلحة قهرية مفروضة، ودرس باهتمام من قبل كل المفكرين، ابتداءً من أرسطو إلى توماس الأكويني، ومن برتراند رسل إلى المهاتما غاندي. لقد انشغلت العقول العظيمة بمسألة السلام وناصرت ما يوافق سبل السلام. ومع أن العام 1937م شهد صدور موسوعة السلام، لكن الوصول إلى صيغة عامة تحظى بالقبول وتؤسس للسلام، لم يتم بعد.

إن السؤال الأساس: لماذا تحقيق السلام؟ وما هو معيار السلام؟ دعاة السلام في العموم يتمسكون بأن السلام يتضمن العدالة الاجتماعية، أو أن السلام يتحقق فقط بإحلال العدالة بين الجميع، فدستور منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة في التعامل مع قضايا العمال قد أكد على أن:

«السلام الشامل والدائم يمكن تأسيسه فقط على العدالة الاجتماعية...»[2] ولقد ظفر ذلك المفهوم للسلام بقبول عام بين العلماء والمثقفين.

إنّ السؤال الجوهري الذي يطرح ها هنا، كيف أن السلام بهذا المعنى لم يتحقق أبداً على مر التاريخ البشري؟ أي أن إحلال السلام مشروط بالعدالة الاجتماعية. التاريخ نفسه يقدم دليلاً تجريبياً

2- International Labour Organization, <http://www.ilo.org/global/about-the-ilo/history/lang--en/index.htm>, [accessed on July 19, 2015].

عـلى حقيقـة ذلـك التعريف للسـلام لأنه لا يتفـق مع السـنن الكونية. والحقيقـة أنـه في هـذا العـالم لا يسـتطيع المـرء تحقيـق أي شيء حـين التخـلي عـن الالتـزام بالسـنن الكونية.

إن سـبب الفشـل في إحـلال السـلام هـو أن معظـم العلـماء ربطوا إحـلال السـلام بتوفـر عوامـل محـددة ليسـت ذات علاقـة بمفهومهـم للسـلام الحقيقـي وهـو أنـه لا ظلم ولا انتهـاك لحقوق الإنسـان وعدم مسـاواة ولا عنـف بـأي شـكل من الأشـكال.

دعنـا نأخـذ التناظـر الوظيفي للتربة فهي تعطينـا الغذاء الذي من دونه لا نسـتطيع الاسـتمرار في الوجود، طبقاً للسـنن الكونية، إذ يجب علينـا أولاً الحصـول عـلى أراضي خصبـة، ثـم نعدها لزراعـة المحاصيل. والأمـر مشـابه لحقيقـة السـلام، فالسـلام مثـل التربـة الاجتماعيـة، إذ مـن خـلال الزراعـة يمكـن الحصول عـلى ثمـار العدالـة الاجتماعية، كما أنـه لا يمكـن جلـب الغـذاء مبـاشرة مـن التربـة، فإنـه بالمثـل لا يمكننـا تحصيـل العدالـة الاجتماعيـة مبـاشرة من إحلال السـلام.

وبحسـب السـنن الكونيـة، فـإنّ السـلام لا يمكـن تحقيقـه إلا عـلى أسـاس أحـادي، أي مـن جانب واحد، وليس على أسـاس ثنـائي أي من كلا الطرفـين، ذلـك يعنـي أنـه يتوجب علينـا أولاً وقبـل كل شيء التخلي عن كل أشـكال المواجهة وأسـاليبها، مثل النشـاطات السياسـية، والنشـاطات القائمـة عـلى الاحتجـاج والمعارضـة والمطالبـة الحقوقيـة. إن المسـلك الأحادي الجانب سـوف يؤسـس وضعاً مسـتقراً، والاسـتقرار سـيقود إلى إحـلال السـلام، والسـلام سـيفتح البـاب لـكل أنـواع الفـرص، عندها من خلال التخطيط الحكيم سـنتمكن من تحقيق كل المكاسـب التي نرغب في الحصـول عليهـا مـن منظـور العدالـة الاجتماعية وحقوق الإنسـان.

وذلـك مـا يمكـن أن نطلق عليه اسـتراتيجية السـلام، ولنأخذ واحداً مـن الأمثلـة التاريخيـة لذلـك، وهـو معاهـدة «صلـح الحديبيـة» التي انضـم إليهـا نبـي الإسـلام صـلى اللـه عليـه وسـلم سـنة 628 م، والتـي اقتضـت بموافقـة النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم عـلى جميـع شروط خصومـه. إن مثـل تلـك التنـازلات قـد بـدت بـلا معنـى لأصحابـه في حينهـا، ولكـن الملمح الأسـاس للاتفاقيـة كان ضمان فـترة زمنية ممتدة تضـع الحـرب فيها أوزارها مـن حيث المبدأ، وأن مـدى معاهدة الصلح والـلا حـرب يبلـغ عشر سـنوات، مما يمنـح النبي صلى الله عليه وسـلم وأصحابـه رضـوان الله عليهـم، فرصا كثيرة لنشر الإسـلام في كل الأنحاء.

إن صلـح الحديبيـة كان قصـة نجاح كبيرة (الفتح المبين)، وبدراسـة مضامينـه ومعانيـه، يمكننا رسـم صـورة متكاملة عن الموضـوع وتطوير منهـج ناجـح لتحقيق الهـدف المرغوب فيه.

يتحقق السـلام على أسـاس أحـادي فقط، أي من جانـب واحد دون مواجهـة الآخريـن، ولكـن عندمـا نرغـب في إقامـة العدالـة الاجتماعيـة وحقـوق الإنسـان، تصبـح المسـألة ثنائيـة متعلقـة بـكلا الطرفـين، لأنـه يتوجـب علينـا حينهـا مصارعـة المجموعـات الأخـرى التـي نعتقـد بأنها مسـؤولة عـن الظلـم وانتهـاك حقـوق الإنسـان. وإذا شرعنـا في طريقنـا لبلـوغ هـذا الهـدف، فـإن ذلـك يفـضي بنـا إلى المواجهـة مـع الجماعات الموجـودة، وبـدلاً مـن بلوغ الهـدف المرغوب فيه، فإن الأشـخاص موضع الاهتـمام سـينخرطون في العنـف. لذلـك يتوجـب علينا اسـتنباط المنهج القابـل للتطبيـق دون التورط في المواجهة مـع الجماعات الأخرى القائمة. في الواقـع، إن تحقيـق دعـوات العدالـة الاجتماعيـة وحقـوق الإنسـان، مـن خـلال تخطيـط في منتهـى الحكمة، ليسـت تلك برحلـة على طريق ممهـدة فسـيحة، بـل إنهـا رحلـة وعرة عـبر آجـام وأدغال شـائكة.

ولهذا، فإن إحلال السلام من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية ليس بالصيغة العملية (القابلة للتطبيق)، إذ يوجد صيغة واحدة فقط قابلة للتطبيق وهي إحلال السلام من أجل الاستقرار، وهذا الاستقرار فقط هو الذي يمنحنا الفرصة للقيام بتخطيط حكيم لازم لتحقيق هدفنا.

فالتخطيط الحكيم غير خلافي ولا جدلي في الطبيعة، إنه الشيء الذي يمكن القيام به، دون الدخول في مواجهة مع الآخرين، بغض النظر عن أي شريحة من المجتمع الذي ينتمون إليه. والصيغة في هذا الاعتبار هي تأسيس لمناخ سلمي مهما كان الثمن، وذلك سيفتح كل أبواب الفرص، وعند ذلك، وبالاستفادة من تلك الفرص ومن خلال التخطيط الحكيم (حسن التدبير)، يمكننا تحقيق النجاح المنشود.

السلام هو الخير الأسمى

الخير الأسمى لغةً يعني الخير الأعظم، فهو منتهى الغايات في حد ذاته. وفي الوقت نفسه يحمل في طياته كل الخيرات، فماهو الخير الأسمى عملياً؟ الناس لديهم آراء مختلفة حول هذا الأمر، فمعظم الناس يتمسكون بأن الحرية هي الخير الأعظم، ولكن الحرية لا يمكن وصفها بذلك، إن الخير الأسمى هو منفعة قصوى خالية من الآثارالجانبية السلبية، غير أن المنفعة المرجوة من وراء السعي لنيل الحرية غير المدروس والمخطط له، يمكن أن ينجم عنه الفوضى. والفوضى تخلق مشاكل يتعذر حلها، وتصاحبها عراقيل تمنع وتصد كل أنواع النجاح نحو التطوروالرقي المادي والروحي.

والحقيقة هي أن الخير الأسمى الحقيقي هو السلام، وهو خير في جميع الظروف والأحوال. أيا كان الأسلوب الذي نستخدمه من أجل

إحلال السلام، فلن يكون له على الاطلاق نتائج سلبية، فالسلام يجلب الاستقرار ويعود بالأمور إلى طبيعتها (حالة الطبيعة)، وهذا أفضل مايجلبه إحلال السلام، لأن كل أنواع التطور والتقدم تجد لها موطئا ومكانا في أوضاع الاستقرار العادية.

هناك نوعان من السلام: السلام الفردي على المستوى الشخصي، والسلام الجماعي المجتمعي ، والاسم الآخر للسلام الفردي هو سلام العقل، وسلام العقل هو الأكثر أهمية لجميع الأفراد. والمقصود به حسن التدبير الفردي، أي أن يحظى الفرد بالسلام العقلي عندما يكون الفرد قادراً على حسن إدارة نفسه فقط. ومن جهة أخرى فإن جلب السلام للمجتمع هو مسألة تتطلب اتخاذ إجراءات أو تدابير جماعية.

عند التأمل عبر التاريخ، تجد أن حسن التدبير والإدارة للمجتمع في معناه النموذجي القيمي هدف مراوغ ومضلل. فأولئك المصلحون الذين عملوا من أجل تحقيق مجتمع السلام المثالي النموذجي تبين لهم أن مساعيهم تؤدي إلى العنف بدلاً من السلام الاجتماعي.

فماهو السبب وراء تلك النتائج السلبية؟ السبب أن أولئك النشطاء الاجتماعيين ربطوا بين مفهوم السلام الاجتماعي والعدالة الاجتماعية. فطوروا نظرية مفادها أنه لا يمكن تحقيق السلام الاجتماعي إلا من خلال تحقيق العدالة الاجتماعية. أولاً وقبل كل شيء، إنهم شعروا أنه يتوجب عليهم إقامة العدالة الاجتماعية، حينها ونتيجة لذلك سينشأ السلام الاجتماعي.

غير أن هذه النظرية ليست قائمة على أسس فطرية على الإطلاق، وبناءً على ذلك فهي نظرية غير قابلة للتطبيق، طبقاً للسنن الكونية فإن دور السلام هو تهيئة أرضية مناسبة لكل

الأنشطة المختلفة، وبالاستفادة من تلك الأرضية نستطيع تحقيق هدف العدالة. إن الدور الأساس للسلام هو تحقيق الحياة الطبيعية المستقرة، التي تكون مطلبا أساسيا لكل أنواع النجاح. لذلك يتوجب علينا في البدء إقامة السلام مهما كان الثمن.

المشكلة تكمن في أن السلام الاجتماعي مسألة أحادية الجانب، ويوجد دائماً العديد من الجماعات التي تشكل المجتمع، وعليها أن تقبل خطة سلام، وعندها يمكن بالفعل إحلال السلام.

إذاً ماهو الوضع المشترك المقبول لكل أجزاء المجتمع، الصيغة الأفضل للسلام هي القبول والعمل في ظل الوضعية القائمة، أي أن أفضل صيغة للسلام هي قبول الوضع القائم، وذلك أنه إذا ما حاول شخص إحداث تغيير في الوضع القائم، فذلك يمكن أن يقود أو يفضي إلى العنف، وإذا قبل المرء بالوضع القائم، سيحل عند ذلك السلام.

إن الصيغة القابلة للتطبيق في هذا الوضع يمكن التعبير عنها على النحو التالي:

- عند الرغبة في إقامة السلام الفردي تؤخذ المثالية بعين الاعتبار، بينما تراعى الواقعية عند الرغبة في إقامة السلام الاجتماعي.

لا توجد صيغة أخرى فاعلة في التدبير والتخطيط لتحقيق الأهداف وبلوغها. ولنأخذ مثالا على ذلك يوضح هذا المعنى:

بعد الحرب العالمية الثانية حاولت كل من ألمانيا واليابان إعادة التطوير والنهوض ببلديهما التي دمرتهما الحرب. ولتحقيق هذا الغرض كانت البيئة السلمية ضرورة لكلتا الدولتين. ولكن كانت هناك بعض المشاكل، على سبيل المثال، فقد فقدت ألمانيا الجزء الشرقي من أراضيها، و الأمر نفسه حصل لليابان أيضاً، التي خسرت

جزيرتها الاستراتيجية (أوكيناوا)، لقد اختار كلا البلدين صيغة قبول الوضع القائم دون العمل على تغيير الوضع الراهن، وشرعوا في تنفيذ مخططاتهم، أي في إعادة بناء بلديهما، باستخدام المصادر التي مازالت تحت تصرفهم وسيطرتهم. وكلاهما برهن على كونه ناجحا وحقق مستويات عالية من التطور في فترة زمنية قصيرة قياسية.

إن السبيل الوحيد لإقامة السلام في المجتمع، إذا أردنا تحقيق أي أهداف مادية أو روحية اتباع هذه الصيغة:

(اقبل الوضع القائم واعمل على إنجاز عملك بالتدابير السلمية، بهذا الأسلوب ستحقق بالتأكيد كل النجاح.)

إنها لحقيقة أن السلام هو الخير الأسمى، ولكن إذا رغبت في تحقيق السلام يتوجب عليك اتباع السنن الكونية. وذلك يعني أن السلام يمهد الأرضية لممارسة كل النشاطات، وليس نتيجة لتلك النشاطات. الطريق السليم هو أنه في البدء يجب تهيئة أرضية صحيحة وعندها تحقق أهدافك من خلال التخطيط الحكيم.

إن السلام بمثابة التربة، وبدون التربة لا وجود للأشجار، وبالمثل فإنه بدون سلام لا تكون هناك تنمية وتقدم أو رقي اجتماعي.

السلام والعدالة

في العصر الحديث انخرطت العديد من الجماعات في أعمال العنف، وإذا توجهت إليهم بالسؤال: لماذا تقومون بأعمال ينجم عنها سفك الدماء؟ سوف يجيبون: «لأننا ضحايا الظلم، امنحونا العدالة ونحن نعطيكم السلام، بالمقابل.»

إنّ الشرط الثاني لتحقيق السلام تحقيق العدالة، وهو أمر مستحيل، فمن خلال النضال والكفاح من أجل العدالة يتحقق السلام، إن هذا الشرط بمثابة وضع العربة أمام الحصان، إن كل الأشياء في هذا العالم، تخضع وتعمل وفقا للسنن الكونية، ومطلب تحقيق العدالة ليس استثناء.

وطبقاً للقوانين الكونية، فالعدالة لا تمنح لشخص ما بمثابة الهبة أوالهدية، والسبيل الصحيح لبلوغها، إنه وقبل كل شيء، يجب العمل من أجل إقامة السلام من جانب أحادي، والسلام بدوره سيفتح الأبواب لكل الفرص. عند ذلك تستغل الفرص عبر التخطيط الحكيم للمساعدة في تحقيق العدالة. ولا يوجد في التاريخ أي شخص أحرز العدالة بواسطة القتال.

السلام ليس مقصوداً مباشرة من أجل تحقيق العدالة، فالسلام ضروري من أجل إرساء الحياة الطبيعية (الاستقرار)، وعندما تسود الحياة الطبيعية أوالاستقرار، تصبح كل الفرص متاحة وممكنة، وأنه من خلال الاستفادة من مثل تلك الفرص فإنه يمكن للمرء تحقيق العدالة.

ولا يمكن تحقيق العدالة لمجرد كونها حقاً، وبالأحرى إن المرء يحظى بالعدالة عندما يثبت أنه جدير بها، إذا تذمرت ضد الظلم الاجتماعي، وألقيت اللوم على الآخرين فذلك ليس مسلكاً صحيحاً نحو تحقيق السلام، إنه يتوجب عليك عوضاً عن ذلك العمل على معرفة جوانب القصور والخلل لديك، وطبقاً للسنن الإلهية فإن ما تطلق عليه الظلم الاجتماعي هو نتاج نقصك لاستحقاق العدالة، لهذا السبب فإن تحقيق العدالة يتوجب عليك إعداد نفسك

طبقاً لذلك، والظلم يمكن القضاء عليه من خلال التعليم والعمل الشاق، وليس عن طريق المطالبة والاحتجاج، إن استراتيجية التذمر والاحتجاج لن تهبك العدالة أبدا.

إن عالمنا هو عالم قائم على المنافسة، وفي هذا العالم يمكن للمرء تحقيق أي شيء فقط على قاعدة الاستحقاق، وليس من خلال الشكوى أوالمطالبة.

لقد ظهر عدد كبير من المصلحين الذين كان هدفهم تحقيق العدالة الاجتماعية من خلال المطالب، ولكنهم فشلوا، والسبب وراء ذلك الفشل كان في أن انطلاقهم لم يكن من الواقع.

هناك نقطة انطلاق واحدة فقط، وتلك النقطة هي: تعليم الناس وجعلهم مؤهلين ومستحقين ليحظوا بالعدالة، العدالة لمن هم أكفاء جديرون بالتقدير، إنها لا تتحقق بصورة آلية. فإذا كنت تستحق العدالة، فإنك بالتأكيد ستنالها. غير أنه إذا كان ينقصك الاستحقاق اللازم، فإنك بالتأكيد ستحرم منها.

كباقي الأمور الأخرى، تحقيق العدالة قائم على القاعدة المشهورة (أعط وخذ)... إذا دفعت الثمن اللازم فسوف تنال العدالة، والعكس صحيح.

«السلام ليس مطلوبا من أجل العدالة، السلام مطلوب من أجل إقامة الاستقرار والحياة الطبيعية»[3].

أما العقبة الأخرى لتحقيق العدالة فهى هوس الناس بمبدأ العدالة المثالية والمطلقة، لأن العدالة المطلقة غير قابلة للتحقيق،

3- International Labour Organization, <http://www.ilo.org/global/about-the-ilo/history/lang--en/index.htm>, [accessed on July 19, 2015].

فـما يتحصـل عليـه النـاس طبقاً لتصورهم هـو أقل مـن مطالبهم، لهذا وحتـى بعـد أن يظفـر الفـرد بالعدالـة، سـيعتقد مـن ظفـر بالعدالـة بأنـه لم يتـم لـه ذلـك بالقـدر الـكافي، لأن الحقيقـة أنـه في هـذا العـالم، أن الشـخص يمكنـه بلـوغ العدالـة القابلـة للتطبيق أوالتحقيـق، وليس العدالـة المطلقـة (النموذجيـة)، ولهـذا السـبب أنه حتـى عندما يرتقي النـاس عـلى سـلم الإنجـازات، يعتقـدون بأنهـم في درجـة المعوزيـن أو المحرومـين، وهكـذا فـإن حـل المشـكلة هو تخفيـف شـعور الناس من الاضطـراب والاهتيـاج الناجـم بالأحـرى عـن شـعورهم بالظلم.

هنـاك سـجل تاريخـي لاندلاع أعـمال العنف نتيجة ما فعله الشـعور بالضيـم لـدى النـاس، والواقـع أنهـم اعتقـدوا أن كل ما تحصلـوا عليه هو أقـل مـما طالبـوا بـه. لذلك اسـتمروا في الشـعور بالظلـم. عـلى الرغم من أنهـم قـد تحصلوا عبر العدالة على ما يمكـن أن يتحصلوا عليه من خلالها.

إن السـبيل لوضـع نهايـة للعنـف، هـو تحـول النـاس عن الشـعور بالظلـم، وعوضـاً عـن ذلـك لابـد مـن حثهـم عـلى الانخـراط لتحقيـق العدالـة. فتحقيـق العدالـة متيـسر في جميـع الأوضـاع، بينـما العدالـة المطلقـة مسـتحيلة.

ويؤكـد ميثـاق أو دسـتور منظمة العمـل الدولية، على أن«السـلام العالمـي الشـامل يمكـن أن يؤسـس فقـط عـلى العدالـة الاجتماعيـة.»[4] ولكـن هـذه الفرضيـة ليسـت واقعيـة، الحقيقـة أن السـلام يمكـن أن يؤسـس فقـط عـلى قبـول الوضـع القائـم، والذي يـوزاي قبـول الوضع القائـم بالقناعـة، هو الرضا. ومن خلال السـلام سـتفتح أبـواب الفرص، ومـن خـلال انتهـاز تلك الفـرص يمكـن تحقيـق العدالة.

4- International Labour Organization, <http://www.ilo.org/global/about-the-ilo/history/lang--en/index.htm>, [accessed on July 19, 2015].

قوة السلام

غالباً ما يعرّف العلماء السلام بأنه غياب الحرب، وهذا تعريف سلبي، والتعريف الإيجابي يجب أن يكون السلام هو الحالة التي تظهر فيها الفرص الذهبية الكثيرة، إن الدور الأكثر أهمية للسلام هو فتح أبواب الفرص، ومنح كل فرد الفرصة لاستغلال تلك الفرص من أجل بلوغ هدف أو أهداف ما.

الفرص هي الأكثر أهمية في الحياة، فالنجاح يتحقق عندما يتعرف المرء على الفرص ويستغلها بالتخطيط الحكيم، لذلك من الأهمية البالغة إقامة السلام في العالم مهما كان الثمن. فالسلام سيفتح الفرص، وباستغلال تلك الفرص يمكن للمرء تحقيق كل ما يرغب في تحقيقه. وأولئك الذين ينخرطون في العنف يبرهنون على عدم وعيهم بسنن الطبيعة (السنن الكونية).

على سبيل المثال، إذا سئل أولئك الاشخاص المنخرطون في أعمال العنف، ما السبب وراء أفعالهم وعدم اهتمامهم بإحلال السلام؟ فالإجابة المتوقعة من هؤلاء ستكون أنهم على دراية بأن السلام أمر جيد وطيب، ولكنهم قد حرموا من العدالة.

إن تلك الإجابة مثل وضع العربة أمام الحصان، الواقع أنه ما من أحد سيقدم لك العدالة كهبة، فالعدالة نتاج لجهود الشخص بنفسه، أولاً وقبل كل شيء، يجب عليك إحلال السلام بأي ثمن. بعد ذلك، يتوجب عليك بدء مسيرتك تجاه تحقيق العدالة من خلال التخطيط والتدبير الحكيم. هذا هو الطريق الوحيد نحو إحلال العدالة، ولا يوجد طريق آخر لبلوغ هذا الهدف.

بعيد الحرب العالمية الثانية قسم الحلفاء ألمانيا بصرامة إلى جزئين: ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، هذه الاستراتيجية هدفت إلى إضعاف ألمانيا على أساس دائم، وتلك كانت مسألة جلية للظلم. لكن القادة الألمان لم يقوموا برد فعل، ما حدث أنه تم إعطاء فرصة للسنن الكونية لأداء عملها. اتباع العملية السلمية والسنن الكونية الخفية أدت دورها في صمت لتأسيس الاستقرار والحياة الطبيعية. وفي آخر الأمر سقط سور برلين، وبعد خمس وأربعين سنة، أصبحت ألمانيا دولة موحدة سنة 1990م. واليوم كلا القسمين من ألمانيا يشكلان دولة واحدة، بالضبط كما كانتا قبيل عشية الحرب العالمية الثانية. إن ألمانيا الغربية لم تخض الحروب من أجل الامتداد نحو ألمانيا الشرقية، وكل ما قام به الألمان هوتعبيد الطريق نحو السلام.

إن القوة الكبرى للسلام تكمن في فسحه مجال العمل للسنن الكونية لتأدية دورها. فإذا رغبت في أداء دورك من خلال شن الحرب، فإنه يتوجب عليك خوض الحرب بنفسك، والسلام من جهة أخرى سيعمل لصالحه، إذا أوقفت الحرب فسوف يسود السلام . وفي هذه الحالة ما نحتاج إليه هو منح السنن الكونية الفرصة. وفي مثل هذا الوضع ستؤدي السنن الكونية إلى آثاراً عاجلة. والشرط الوحيد هو أنه عندما تبدأ السنن الكونية بالعمل، يجب على المرء ألا يتدخل. إذ إن السلام يتماشى ويعمل فقط في بيئة عدم التدخل، وعندما يكون هناك تدخل ستتوقف العملية الفطرية. وبالمثل عندما يتم بذر البذور تبدأ الشجرة في النمو تلقائياً، وتلك أيضاً القدرة الكبرى للسلام. وهكذا فالذين يدركون القوة الكامنة للسلام لن يواجهوا أبدا الفشل.

باستخدام العنف يمكنك اقتلاع شجرة، ولكن استخدام العنف لن يمكنك من زراعة شجرة، وذلك في الواقع شبيه بالحياة الإنسانية. وفي الحياة البشرية الحرب لا تقود إلا للدمار، بينما السلام يحمل هدفاً إيجابياً. ولا يمكن القيام بأي عمل بناء إذا كان هناك عنف، في حين أن السلام يمهد للأعمال البنّاءة. فالسلام يمهد الطريق لبناء الأمة عبر السبل الصحيحة والسليمة.

الحرب تبدأ بالغضب وتنتهي بالغضب، وهي لا تحمل أي ملمح بناء أو مظهر صحي لا عند إندلاعها ولا عند انطفائها. أما السلام فهو حالة صحية في كل الأحوال وفي كل المجالات يقود إلى النتائج الإيجابية، تماشياً وانسجاما مع السنن الكونية. ولهذا السبب عندما يختار المرء الأسلوب السلمي، فإن العالم كله بأرضه وسمائه يدعمه ويكون في صفه. وأما إذا اختار المرء أسلوب العنف فإن الكون بأرضه وسمائه سيقف في وجهه.

الفصل الثاني:

بزوغ عصر السلام

عصر انتهاء الاحتكارية

خلق الله -تعالى- الإنسان وأسكنه كوكب الأرض، ومنحه كامل الحرية لاستخدامها بانضباط وبمحض إرادته، ولكن الإنسان فشل في تحقيق ذلك. إن الجشع للسلطة السياسية وتحقيق المصالح الشخصية والاقتصادية وعدم التسامح الديني ظل النظام السائد للحياة، واستمر هذا الوضع لآلاف السنين، وهذا كان السبب الأساس لسيطرة ثقافة الحرب خلال العقود السابقة.

تلك الظروف والأحوال تعارضت مع سنة الله في الخلق، فطبقاً لحكمة الله من وراء الخلق، يتوجب بالضرورة حصول كل رجل أو امرأة على بيئة حرة للتطوير أوالارتقاء بشخصيتهما. ولكن بمرور الزمن أصبح هذا التدبير معطلاً... ولكن إرادة الله صححت مسار التاريخ بينما حفظت للإنسان كامل الحرية.

تطلب الأمر تدبيراً إلهياً في غاية الدقة والتعقيد عبر عصور طويلة ليبلغ مداه، ويحقق أهدافه ويشكل الزمن الحاضر أوج ذلك التدبير الإلهي ومنتهاه.

إن الخيارات المحددة المتاحة في الأزمنة الأولى، أفضت إلى غلبة الاحتكارات المطلقة على كافة الميادين: كالسلطة السياسية والفرص الاقتصادية والمجال الديني، كل الأمور تم احتكارها من قبل جماعة أو أخرى، وفي مثل هذا الوضع أراد الخالق -تعالى- كسر الاحتكار عن كل مصادر الحياة، حتى يتعين حصول كل رجل وامرأة على الحرية في الاختيار. لذلك الغرض بدأ الله -تعالى- في عملية تدبير كامل للتاريخ، وهكذا يمكن أن نقرَّ أن الحضارة المعاصرة هي تتويج للتدبير الإلهي وهي عملية زمنية طويلة من التدبير الإلهي.

إن عصر الديمقراطية -اليوم- رسَّخ انعدام الاحتكارية للقوة السياسية والتصنيع الحديث. وكان نتاج عدم الاحتكارية وفق مصطلحات الفرص الاقتصادية والحرية الفكرية للعصر الحديث، جعلت من الممكن إنهاء احتكار وجهة النظر الدينية، كما أن العلم الحديث قاد إلى إنهاء احتكارية نظم العقائد القاسية.

تلك الظاهرة التي أطلق عليها الكاتب الأنجليزي جي. اف. ويست، بحق «الثورة الفكرية العظيمة»[5]، إن إنهاء احتكارية كل أنواع الاحتكار المطلق استوجبت ترسيخ ثقافة السلام. بعد إنهاء الاحتكارية صارت كل الأشياء في متناول الجميع، ولهذا لم يعد الانغماس في العنف ليحقق للمرء غاياته جديرًا بالاهتمام.

إن الحضارة الحديثة أنهت فعلياً الاحتكار المطلق لكل فرص الحياة، فأصبح من الممكن لكل شخص أن يكون حراً للقيام بما يرغب في تحقيقه في أي حقل يختاره أو تختاره، غير أنه بالرغم من تطور الحضارة الحديثة، فإننا نرى أن ثقافة العنف مازالت ماثلة في بعض المواطن؟ والسبب هوانعدام الوعي بهذا التحول التاريخي.

وعلى سبيل المثال، إذا أراد شخص ما الحصول على السلطة السياسية فلن يكون له من حاجة لشن حرب. وفي الزمن القديم تغيير الحكومات لم يكن ممكنا إلا عن طريق القتال وإزالة الحاكم عن عرشه، لكن في ظل الديمقراطية صار من الممكن اعتلاء منصب الحزب الحاكم من خلال الانتقال السلمي عبر إجراء انتخابات، إن تلك التطورات جعلت العصر الحديث عصراً للسلام، ولكن للاستفادة من تلك الفرص العصرية فإن الأمر يحتاج للتعليم، لذلك السبب نرى

5- John Frederick West, The Great Intellectual Revolution, New York, The Citadel Press, 1966.

أن المجتمعات المتعلمة، يتم فيها التغيير بشكل سلس وعبر عملية سلمية من خلال إجراء الانتخابات، بينما في المجتمعات الأقل تعليماً مازال الناس في قبضة عقلية متخلفة عن العصر، ومازالوا يتقاتلون من أجل الاستيلاء على السلطة.

والأمر يصدق بالمثل فيما يتعلق بالفرص الاقتصادية، فاقتصادنا القديم كان قائما بالأساس على الزراعة، عن طريق السيطرة واغتصاب أراضي الغير ليتمكن المرء من زيادة إنتاجه، أما اليوم فإن المجال الواسع للصناعة فتح على مصراعيه، ويمكن للمرء تحقيق النجاح باستغلال الفرص الهائلة المتاحة في هذا الميدان.

إن إنهاء الاحتكارية للموراد في العصر الحديث هو نعمة وبركة عظيمة، ذلك أنها جعلت أسلوب أومنهج العنف غير ذي نفع وجدوى. الآن عبر الوسائل السلمية كل شخص صار قادراً على تحقيق النجاح على درجة عالية. إن إنهاء عصر الاحتكارية وقدوم عصر نهاية الاحتكارية- بتعبير آخر- هو إنهاء لعصر العنف وحلول عصر السلام.

إن عصر الاحتكارية قد أزال عملياً خيار الحرب، وهكذا فإن خيار الحرب الآن لن يظهر تحت أي نوع من الضرورة، بل إن خيار الحرب هو فقط نتيجة سوء الاستخدام الجاهل للحرية.

الحضارة الغربية

هناك عدة آيات في القرآن الكريم تتضمن تنبؤات عن أحداث مستقبلية. على سبيل المثال، التنبؤ بانتصار الروم على الفرس، ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، (سورة الروم 1 - 3)، الذي تحقق في بضع سنين كما ذكر في القرآن، ولكن التنبؤ الأكثر دلالة ووضوحا

والـذي تحقـق بوضـوح هو ظهـور الحضـارة الغربية، تلـك الحضارة المؤيـدة أو المنـاصرة للقيـم الإنسـانية في فـترة متأخـرة مـن التاريـخ البـشري، قـال تعـالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، (سـورة فصلـت 53).

هـذه الآيـة تتنبـأ بوضـوح عـن التطـورات التـي حدثـت في الأمـم الغربيـة بعـد ألف سـنة من نـزول الوحي القرآني، إن الحضـارة الغربية في الواقـع أسسـت عـلى العلـم، ويوجد ملمحان رئيسـان لذلـك، ملمح نظـري وآخـر عمـلي أو تطبيقي.

الملمـح التطبيقـي للحضـارة الغربيـة كـما يطلـق عليـه في العـادة الملمـح التكنولوجـي، هـو الملمح المذكـور في الحديث النبـوي التالي: «إن اللـه ليؤيـد هـذا الديـن بالرجـل الفاجر»[6].

والفاجـر هنـا يعنـي الشـخص اللاديني (غـير المتدين)، هـذا القول النبـوي في الواقـع نبـوءة لظهـور الحضـارة الغربيـة، التـي كانـت في جوهرهـا منـاصرة للقيـم الإنسـانية، أي أنهـا سـتكون مفيـدة للبشرية والديـن الإلهـي كذلك.

إن الحضـارة الغربيـة ليسـت ملكيـة قاصرة على جنـس أو مجتمع معـين. بـل إنهـا تديـن بالكامـل لاكتشـاف قوانـين الطبيعـة المسـتترة، والتقـدم التكنولوجـي الذي اسـتفاد ويسـتفيد منه البـشر جميعا دون اسـتثناء. وعـلى سـبيل المثـال، إن اكتشـاف قوانـين الطبيعـة أنتج عصرًا جديـدًا للاتصـالات، ومـن خلالـه يمكـن أن ينتفـع به كل شـخص، بما في ذلـك المناصريـن والمؤيديـن لدين الإسـلام.

6- متفق عليه، رواه البخاري ومسلم، صحيح البخاري، حديث رقم (3062).

إن تطور الحضارة الغربية له جانبان رئيسان، أحدهما متصل بالثورة الفكرية التي ظهرت في عالم السياسة والاجتماع. على سبيل المثال أحد أهم الخطى في هذا الاتجاه كانت استبدال النظام الموناركي (الملكية المطلقة) بالنظام الديمقراطي، والجانب الآخر يختص بالفوائد التي تولدت عن تطور وسائل الاتصال الحديثة. ذلك الأمر أعطى الناس معرفة متعمقة وكاملة بالجغرافيا، وسهل عليهم السفر والتنقل من مكان لآخر. كما أن آلة الطباعة أيضاً سهلت انتقال الأفكار وشيوعها حول العالم. فالتقنية الالكترونية حولت بحق العالم إلى قرية كونية. والآن أصبح من الممكن الكلام من أي جزء من العالم لتسمع وتشاهد ما يدور في مكان آخر بعيد كل البعد.

الفائدة الكبرى من تلك التطورات الحديثة هو أنه لأول مرة على مر التاريخ البشري يتم إطلاق أو إعلان عصر السلام. أما في العصور المبكرة لهذا التاريخ، فيتم خوض معارك دموية من أجل تحقيق أية غاية، فكل الأمور كانت تقرر في أرض المعركة، ونظراً لذلك فإن أناساً كثيرين من بني البشر غادروا هذا العالم دون القيام بالدور المنوط بهم.

في أعقاب التطورات الحديثة، ولأول مرة في التاريخ البشري، صار من الممكن تحقيق أي هدف مهما كان صغيراً أو عظيماً من خلال الوسائل السلمية.

إن تدبير الخالق جلّ وعلا، البعيد والطويل المدى، قاد إلى إحداث ثورة في التاريخ البشري، ليضع نهاية لزمن الحرب. وفي هذا السبيل، صار من الممكن اليوم عن طريق استخدام الوسائل السلمية بلوغ كل الغايات بطريقة هي أفضل من استخدام الشدة والعنف والذي لا يحقق أي شيء ذي قيمة.

إنها أكبر إنجازات العصر الحديث، لكن أولئك الذين اختاروا أسلوب الحرب والعنف في عالم اليوم، فإنهم يثبتون فقط أنهم غير مدركين وواعين بالكلية بالتحولات التاريخية الحديثة، وهذا الجهل التام ينعكس في استخدامهم المتهور للسلاح عن طريق انحيازهم أوميلهم للعنف، فاقترفوا أبشع جريمة في تاريخ البشرية.

إن أولئك الذين أهملوا وتخلوا عن المنهج السلمي في القرن الواحد والعشرين، واختاروا الانحياز لاستراتيجية البنادق والقنابل، يبرهنون فقط على أن كل ما يستطيعون أن يكتسبوه وينالوه لأنفسهم وللآخرين هو تاريخ من الموت والدمار، ستنطبق عليهم في الحياة الآخرة الآية القرآنية الكريمة: - ﴿ **فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾، (سورة البقرة 85).

عصر البدائل

في الأزمنة القديمة، كان أمام الناس الطامحين ميدان وحيد يمكنهم من خلاله تحقيق طموحاتهم، ولكن العصر الحديث شهد تحولا هائلا في هذا السياق، نحن الآن نعيش عصر البدائل وهناك العديد من الخيارات عوضاً عن الانخراط في المعارك.

للشخص الطموح هناك عدد من البدائل السلمية المتاحة، وإن تلك المكاسب أو الثمرات التي يتوقع الناس الحصول عليها فقط من خلال الحرب هي الآن من الممكن بلوغها وبدرجة أكبر عن طريق استخدام الوسائل السلمية، ومن أجل إيضاح تلك النقاط، أرغب في استحضار مثالين متماثلين: كان الحكم المغولي في الهند حكم السلالات الحاكمة، وكان أورنغزيب (1618 - 1707م) الحاكم

السادس لتلك السلالة الحاكمة، وكان هو وأخوه دار شاكون (1615 - 1659م)، يحملان برامج وأهدافا مختلفة، في ذلك الزمان كان هناك سبيل وطريق وحيد متاح لحل الخلافات ألا وهو القتال، بناءً على ذلك نشب القتال ولقي (دار شاكون) ومناصروه الهزيمة وقتلوا.

في الوقت الحاضر هناك حزبان رئيسان في الهند ذاتها، هما حزب المؤتمر وحزب بي جي بي. وكلا الحزبين يمتلك رؤية وبرامج مختلفة، ولما كانت الهند اليوم دولة ديمقراطية، فإن كلا الحزبين يتنافس ويتبارى في الانتخابات لتقرير مصيرهما. وهذا المبدأ يؤدي فعله، وفي مايو 2014م، صبيحة الانتخابات العامة تغيرت القيادة السياسية للهند بصورة سلمية.

هذا البديل متاح لكل البلدان، حتى في تلك الدول التي تنخرط فيها بعض الجماعات في مستنقع العنف. حيث ترد إلى أسماعنا أخبار عن دماء تسفك. هذا الوضع ناجم عن عدم إدراك قياداتها للتغيير الحاصل في هذا الزمان، أولئك القادة المنشغلون بأعمال العنف في تلك البلاد يعملون تحت تأثير عقلية قديمة. وطبقاً لتلك العقلية والمزاج، فإنهم يعرفون فقط نموذج الملكية القديم، وليس لهم علم بالنموذج الديمقراطي المعاصر.

على الرغم من النتيجة المروعة لهذا النوع من النضال العنيف، فإن طريقة تفكير أولئك القادة رسخت بشكل جذري هذا العنف، فصاروا غير قادرين على إعادة التفكير في استراتيجيتهم. في الوقت الحاضر وقع عدة قادة ضحايا للعنف مثل صدام حسين المتوفى في عام 2006م، وأبي بكر البغدادي المتوفى في 2014م (دون تأكيد)، أبي آلا العفري المتوفى 2015م.

إن حلول عصر البدائل المتعددة شكل علامة إيجابية جداً، إنه يعني تحول التاريخ من الحرب إلى السلام، في القرن الحادي والعشرين وصل هذا العصر إلى منتهاه، والآن لم يعد هناك حاجة لتبني ثقافة البندقية والقنبلة، وكل شخص يرغب في بلوغ طموحاته يجب عليه إدراك روح العصر. وقبل القيام بأي عمل يتوجب عليه التفكر ملياً في الأوضاع بصورة شاملة كاملة، وسوف ينتهي بالتأكيد إلى فهم حقيقة الخيار الأفضل ألا وهو الوسائل السلمية.

أحد الأمثلة المشابهة نجده في تركيا المعاصرة، مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت تركيا جزءاً من الأمبراطورية العثمانية، التي ضمت ما يقارب الثلاثين دولة من الدول المعاصرة، ولكن خلال الحرب العالمية الأولى، تفككت الأمبراطورية العثمانية وانتهى التوسع السياسي التركي.

وهكذا، فإن قادة تركيا المعاصرة صبيحة تفكك أمبراطوريتهم اتخذوا بعض الإجراءات الصارمة، وبحثوا عن بديل لخيار التوسع السياسي، ألا وهو تطوير العلوم والتكنولوجيا في بلادهم، ونتيجة لذلك وخلال فترة وجيزة، ظهرت تركيا من أكثر الدول تقدماً في العالم الإسلامي.

في الوقت الحاضر يعيش المسلمون الانقسام السياسي الذي يتمثل في وضعية أو سياسة الحاكم والمحكوم. وجد المسلمون أنفسهم في مرتبة أدنى وهي مرتبة المحكومين التي لم يتقبلوها، لذلك فهم يعملون من أجل تغيير الوضع القائم واستعادة مرتبة الحاكم.

هذا التفكير الثنائي غير واقعي بالمرة، فهم غير مدركين لوجود خيار ثالث متاح أمامهم عليهم استغلاله والاستفادة منه. هذا

الخيار بالغ الأهمية لدرجة أنه بتطبيقه والعمل في ظله سيكون بوسعهم إقامة أمبراطورية غير سياسية.

المشكلة الحقيقة أن المسلمين اليوم يجهلون حقيقة أن العصر الحاضر هو عصر الديمقراطية، وفي هذا العصر تقلصت الحكومة لتقتصر على القيام بدور الإدارة، ولكن بعيداً عن الدور التنظيمي الإداري، توجد مجالات أكبر وأكثر أهمية مفتوحة أمام المسلمين، على سبيل المثال، التعليم، والصحافة، ووسائل الاتصال، و مجالات الاقتصاد والاستثمار، وكذلك عمل الدعوة وتبليغ رسالة الله للناس. لو تخلى المسلمون عن مجال النشاط السياسي وكرسوا أنفسهم للمجالات غير السياسية المذكورة آنفاً فسوف يحسنون صنعاً، عند ذلك يمكنهم بناء أمبراطوريات عالمية مستقلة، أكبر من امبراطوريتهم السياسية السابقة.

والحق أن العصر الحاضر شهد انفجارًا في البدائل في كافة المجالات، والآن لا حاجة للتشاؤم أو الانشغال بالاحتجاج والعنف والقتال. لكن كل شخص يمكنه ببساطة التوصل لمعرفة أن هناك بديلا له، وأنه عن طريق استغلاله يمكنه تحقيق النجاح في أي مسلك من مسالك الحياة.

في الوقت الحاضر، إن عبارة مثل «النضال» أو «الكفاح المسلح»، ربما ما زالت تظهر في القاموس، ولكن لم يعد لها معنى حقيقي، مثل الكلمات القديمة البالية، فكلمة النضال المسلح صارت أيضاً كلمة قديمة. لقد أصبح الخطاب بمصطلحات الحرب والعنف ضرباً من الفوضوية.

إن «القتال» في العالم المعاصر مفهوم قديم عفا عليه الزمان. وإذا أصبح المقاتلون والمليشيات واعين بهذه الحقيقة، فإنهم من

المؤكد سيلقون بأسلحتهم بعيداً، ولن تجد أسلحتهم مكاناً لها إلا في المتاحف.

عصر الحضارة

إنّ استخدام العنف من بقايا ثقافة المجتمع البدائي، إذ لم يعرف الناس إلا سبيلاً وحيداً لتسوية أمورهم، وذلك باللجوء للعنف.

يحكى أنه في العصر الحجري تشاجر شخصان وتراشقا بالحجارة والغضب يعلوهما، وعند تصادم حجرين ببعضهما البعض نجمت عن ذلك شرارة نارية، راقب الشخصان الشرر الناجم عن التصادم، وتناسا الخصومة والشجار، وشرعا في التفكير ملياً في ظاهرة الشرر. ومن تلك التجربة اكتشفا أن هناك شيئاً ما مستتر وخفي في الصخور، ومنفصل عنها، ذلك أن الصخور لا ضوء لها، ولكن ما نجم عن تصادمهما كان ضوءاً، فالصخور صلبة، بينما الضوء «ناعم»... لقد قيل إن مثل تلك الحوادث كانت وراء سلسلة متواصلة من الدراسة لقوانين الطبيعة.

لقد تطلب الأمر من الإنسان آلاف السنين لاكتشاف ما يوجد من قوانين مستترة في الطبيعة، ومن خلال فهمها تمكنا من تسخيرإمكانات الطبيعة من أجل مصالحنا. إن اكتشاف القوة البخارية مثال لإمكانات الطبيعة المخفية وغير المحدودة، وبالمثل فإن السيارة والطائرة تم اكتشافهما باستخدام مصادر طبيعية.

بهذا الأسلوب أو الطريقة، وبعد فترة زمنية طويلة صار من الممكن تحويل المادة إلى تكنولوجيا، تلك العملية استمرت دون انقطاع مع انشغال قسم كبير من البشرية فيها، ولقد انقضى وقت

طويل ما بين اختراع العجلة وتطوير وسائل الاتصال الحديثة. إن نتائج الكثير من الاكتشافات والاختراعات خلال تلك الفترة، أسهمت بصورة كبيرة في ظهور الحضارة المعاصرة التي غيرت بالكامل نمط الحياة الإنسانية وأسلوبها.

إن الميزة الأبرز للعالم المتحضر هي أنها مكنت الإنسان من الخروج من عصر القساوة والشقاء، وقادته إلى حياة مريحة. إن المدن الحديثة تقدم المتعة، وتجعل ذلك النوع من الحياة متاحاً.

إن الحضارة الغربية منحت - من جميع جوانبها- حياة مريحة للناس، في السفر والتنقل المريح والاتصالات الملائمة ومؤسسات حسنة التجهيز، وباختصار إن كل أنشطة الحياة صارت مريحة ممتعة.

إن عصر الحضارة الحديثة أنهى فعلياً وبجدارةعصر الحرب إلى النهاية. حالتا الحرب والعنف في هذا الزمان صارتا من الأمور التي لاعلاقة لها بالزمن المعاصر، إنها كمحاولة إضرام النار في المطبخ باستخدام صخرتين بدلامن استخدام عود الثقاب أو ولاعة.

في أيامنا هذه، لا أحد يوقد ناراً في المطبخ بتلك الطريقة البالية، ولكننا نشاهد حتى اليوم، نزوع البعض إلى خيار الحرب والعنف على الرغم من كونه خياراً غير حضاري ولا صلة له إلا بالعصور البدائية.

رحلة الحضارة

يندلع العنف عندما تخرج مشاعر الغضب عن السيطرة. في الحياة يواجه الناس تجارب غير مرغوب فيها في معظم الوقائع اليومية، وهذا جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، الأمر الذي يولد

نوعاً من الغضب العاصف لدى معظم البشر، وعندما تظهر بعض الأعمال الاستفزازية تشتعل مشاعر الغضب الدفينة وتؤدي لأعمال العنف، وفي بعض الأوقات للحرب. والحل الدائم لهذا البلاء الكارثي يكون عن طريق إيجاد أسلوب فاعل في كبح وقف ثورة الغضب.

الأسلوب الأفضل يكون بتذكر المآثر التاريخية للبشرية عموماً، وذلك الإدراك سيعمل كمتحكم داخلي وصمام الأمان للعنف.

في الوقت الحاضر، نحن نعيش في عالم متحضر، ونتمتع فيه بأنواع هائلة من الخدمات وسبل الراحة. ولكن تلك الخدمات لم تكن متاحة أو ممكنة في العصر المبكر للحضارة الإنسانية، فكيف ظهرت إلى الوجود؟ إنها النتيجة الحتمية لمسيرة تطور طويلة.

عاش الإنسان البدائي حياة قاسية، تاريخياً تسمَّى تلك المرحلة بالعصر الحجري، في تلك الحقبة من الزمن كان كل شيء في شكل صورته الأولية، ثم بدأ الإنسان رحلته الطويلة نحو الحضارة، امتطى ظهور الخيل بداية، ثم اخترع العجلة، وفي نهاية المطاف – بواسطة جهد بحث علمي طويل- طورَّ الإنسان التقنية تدريجياً فاخترع السيارة والطائرة بديلا للسفر. البشرية بهذا المعنى انتقلت من الوسائل البدائية لتحقق الرفاهية بواسطة التكنولوجيا الحديثة. لقد كانت رحلة الحضارة رحلة طويلة شملت كل البشرية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، قدم الناس تضحيات جمة جيلا تلو الآخر، لقد أنفقوا أعمارهم وطاقاتهم لتطوير أشياء سيستخدمها الجميع. بهذه الطريقة الناس زرعوا حديقة الحضارة، ونحن نجني اليوم ثمارها، ولهذا نحن ندين للبشرية جمعاء.

إن صيغة «أحبوا جيرانكم» صيغة جيدة. وهي الأساس الحقيقي للأخوة البشرية العالمية. ولكن لابد أن تقوم هذه الصيغة على أساس عقلي، على ضوئه يقتدى ويتبع هذا المبدأ في الحياة الواقعية أو الفعلية. إن الإنسان كائن ينشد التبرير، فهو يطلب عقلنة كل أفعاله، بما في ذلك أفعال الحب والشفقة على الآخرين. إن المفهوم المذكور آنفاً «التطور الحضاري» هو الذي يمنح أساساً قوياً لمثل ذلك النوع من التفكير.

يتجنب المرء على الدوام شن الخصومة تجاه والديه، لأنه يعلم بالمنة والفضل والمساعدة التي قدماها له، وإن الناس على دراية بهذا الفضل والمنة التي يقدمها الوالدان، ولكنهم لا يدركون منة أوفضل البشرية الأعظم.

إذا أدركوا فضل أو منة الإنسانية، فإنهم سيحبون الإنسانية أكثر من حبهم لآبائهم وأمهاتهم، ولن يجعلوا من البشرية خصماً أو عدوا لهم. إن الإحساس بالخصومة تجاه الغير هو ما يقود إلى العنف، وإنه إذا تم إنهاء العداوة والخصومة، فإنه لن يتم اللجوء أبداً للعنف.

ولما كان الإنسان مخلوقاً باحثاً عن التبرير، فإنه بدون التبرير لا يمكنه القيام بأي شيء، إذا أدرك الناس الفضائل والمنن للبشرية على حياتهم عبر التاريخ، فذلك يعد بمثابة تبرير ولن ينخرطوا في العداوة أبداً مع الآخرين. وعوضاً عن ذلك سيتبعون المبدأ القائل «أحبوا الجميع»، الأمر الذي يقدم الأساس العقلي الحقيقي من أجل السلام الاجتماعي.

كل تلك السلع الاستهلاكية التي نتحصل عليها من مراكز التسويق، وكل تلك التسهيلات التي تجعل حياتنا مريحة في البيت

وخارجه لم تنجز بأيدي المستهلكين الحاضرين. لقد طورتها البشرية عبر فترة زمنية طويلة، ونحن نستخدمها دون أدنى تفكير في مصادرها، وإذا اعتبرنا تلك الأشياء منة وهبة من البشرية، فسوف نعتبر الآخرين محسنين بدلاً من اتخاذهم أعداءً وخصوماً، عندها ستختفي وتزول كل الأفكار السلبية تجاه الآخرين، وسنحيا بروح عامرة بالشفقة على الآخرين، إن التفكير بهذه الطريقة سيقتلع السلبية التي تعزز وتنمي مفهوم «نحن والآخرون، الذي يؤدي أحياناً إلى العنف.

إن الشخص الذي ينظر للأمور من هذا المنظور، سوف يدرك أن أفراد البشرية لديهم دور منوط بهم في بقائه ووجوده.

حتى الآن مازال المرء يعمل تحت تأثير وهم بأنه في حياته الدنيا لا فضل عليه إلا من عائلته، ولكن الآن سيفهم أن البشرية لعبت دوراً أكبر في حياته، وسوف يقدم على التفكير بأنه لولا فضل الإنسانيةعليه فإنه ليس له أية قيمة.

يحمل كل إنسان مشاعر وعواطف قوية لكل فرد من أفراد عائلته، ولكن إذا نما عنده ذلك التفكير الكوني فسوف يشعر بعاطفة قوية لكل البشرية، وسوف يكتشف قول المسيح عليه السلام: «أحبو أعداءكم»7 بمعنى: أحبوا الجميع، لأن الجميع هم من المحسنين، وأنه لا يوجد أعداء».

اجعل من عدوك صديقاً

خلال زيارتي للولايات المتحدة في شهر يونيو 2011م، كنت قد دعيت لكنيسة أمريكية في فيلادلفيا لإلقاء محاضرة عن أهمية

7- The Bible, Matthew 5: 44.

السلام. عندما انتهيت من إلقاء المحاضرة سألني عالم مسيحي:»هناك تعليم مشهور في الكتاب المقدس:» أحبوا أعداءكم»[8]،هل يمكن أن تشير لأية آية تحمل ذات المعني في القرآن؟ ، قلت: «نعم، يمكنك قراءة الآية رقم :34، من سورة فصلت.

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.

إن هذه الآية تقوم على القانون الفطري الطبيعي. طبقاً للقانون الطبيعي لا يوجد لا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة، والناس يصنفون في إحدى المقامين: بعضهم هم أصدقاء فعليون، والبعض الآخر أصدقاء محتملون، وعلى المرء أن يكتشف هذه الحقيقة وإنه عبر التخطيط السليم يجب عليه محاولة تحويل هذه الاحتمالية إلى واقع.

إن أولئك الذين يقومون بأعمال العنف باسم الجهاد يميلون إلى أخذ الأمور من مدلولها الظاهري، وذلك يعني أنه إن ظهر شخص ما في ثوب العدواة، فهم يعلنونه فورًا عدواً، ويبدأون حرباً دامية ضده، وهذا مثال على فشلهم في النفاذ إلى بواطن الأمور، ولو أنهم نظروا إلى الأمور بعمق وتروى، لأدركوا أن من نظروا إليهم أعداء لهم، فإنهم في حقيقة الأمر، من الممكن والمحتمل أن يصبحوا أصدقاء مقربين.

ولهذا عوضاً عن شن الحرب ضدهم، فإنه كان يتوجب عليهم جعلهم أصدقاء من خلال العمل الدعوي السلمي، وذلك عن طريق تبليغ رسالة الله لهم.

8- The Bible, Matthew 5: 44.

طبقاً للقانون الفطري، فإن كل رجل وامرأة هما من ذرية آدم وحواء، وهذا يعني أن كل الجنس البشري يشترك في جد أعلى واحد، وهذا يعني أن البشرية هي عائلة كونية (عالمية). كل الرجال والنساء هم إخوة أو أخوات برابطة الدم.

في الوقت الحاضر، هذه الظاهرة البيولوجية صارت حقيقة علمية ثابتة، والآن لم تعد قصة آدم وحواء عليهما السلام قصة أسطورية غامضة، وإنما حقيقة واقعية أكدتها البحوث الانثروبولوجية.[9]

إن قبول تلك الحقيقة البيولوجية، -على الأقل من الناحية النظرية- جعلت من الممكن أن يعيش الرجال والنساء عائلة عالمية، بدلاً من العيش جماعات متصارعة. لا يوجد الآن تبرير حقيقي لأي نوع من الحروب القبلية أو القومية أو غيرها بين أفراد المجتمع الإنساني.

نحن قلما نسمع باندلاع حرب بين أبناء العائلة الواحدة، نظرياً ذلك ما يجب أن يكون حقيقة وواقعاً بين البشرية جمعاء، لأنه – طبقاً للبحث العلمي - كل البشرية عائلة واحدة، ولذلك يجب أن تتوقف وتنتهي كل أنواع العداوات القديمة، لقد حان الوقت لتعيش البشرية على الأرض في تناغم كعائلة واحدة، إن العيش في تناغم لم يعد مجرد مبدأ أخلاقي، فضلاً عن ذلك، هو أسلوب في الحياة، إنها الحقيقة التي أثبتتها الدراسات العلمية.

في العصر الحالي هجر المجتمع العلمي العديد من النظريات القديمة، على سبيل المثال، نظرية مركزية الشمس، القائلة بأن الشمس مركز الكون، حلت محل النظرية القديمة الداعية بأن

9- "The Search for Adam and Eve," Newsweek, January 11, 1988.

الأرض هـي مركـز الكـون، والمنهـج والأسـلوب نفسـه قابـل للتطبيـق في مسـألة الحـرب والسـلم، إن مطالـب التقييـمات الواقعيـة للشـؤون الحاليـة والتفكـير العلمـي يجـب أن يلـزم النـاس أن يتخلواعـن خيـار العنـف واختيـار الوسـائل السـلمية عـلى أنهـا الخيـار الوحيـد عملياً.

إن حقيقـة الأصـل المشـترك اسـتبعدت إلى الأبـد معادلـة «نحـن والآخـرون»، والآن المعادلـة الوحيـدة الصالحـة هـي تلـك التـي تقـوم عـلى مفهـوم «نحـن ونحـن». شـن الحـروب هـو بمثابة أن يشـن المرء حربـاً عـلى أفـراد عائلته وليس عـلى مجموعة أخرى غريبـة، إن الحرب اليـوم هـي فعل لعصر ماقبل التحـضر، وليس عصر الحضـارة الحديثة.

هـذه الحقيقـة الكونيـة جـاء ذكرهـا في القـرآن الكريـم في قولـه تعـالى: ﴿ **أَنَّـهُ مَـن قَتَـلَ نَفْسًـا بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّـاسَ جَمِيعًا وَمَـنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾، (سـورة المائـدة 32).

إن الحرب لها نتيجة خطيرة واحدة ألا وهي قتل الآخرين.

الحـرب في حقيقتهـا، فعـل قتـل جماعـي، ومـن هـذا الاعتبـار فـإن الحـرب هـي أسـوأ أنـواع الجرائـم شـناعة، و بعبـارة أخرى، فـإن الحرب هـي القتل والقضاء على البشرية، والسـلام يعنـي حفظ الحياة للبشرية.

إنـه مـن الواضـح مـن خـلال السـياق السـابق أن الخيـار الوحيـد الـذي نملكـه أمامنـا ليـس اللجـوء للعنـف، بـل إحـلال السـلام.

إن قتـل النفـس البشريـة ليـس كمثل قتـل حيوان، إن قتل إنسـان هومثـل قتـل المـرء نفسـه. إذا أدرك الإنسـان هـذه الحقيقـة، فإنـه لن يجعـل أي إنسـان عرضـة أو ضحيـة لأفعـال العنف.

إذا أقدم إنسان على قتل إنسان آخر، فإن ذلك ناجم عن جهل، وإذا كان الناس يعانون من نقص في الوعي في هذا السياق، فبالإمكان معالجتهم، وعندها بالتأكيد سينتهي العنف. إن الطريقة الأفضل لمواجهة العنف والحرب هو تنمية وتطويرالتعليم العالمي.

الفصل الثالث:

مناهج عدم المواجهة
من أجل إحلال السلام

حكمة الخالق من الخلق

لسنا نحن من صمم هذا العالم؛ هذا العالم مصمم من عقل أعلى وأسمى من عقولنا، لذلك يجب علينا اتباع مخطط الأشياء كما عبر عنها العقل المصمم للكون، وإلا فإن جهدنا وحياتنا ستنتهي بالفشل.

السلام أحد المبادئ التي صمم على ضوئها هذا الكون، وباتباع طريق السلام ومنهجه فإنه لايوجد شيء يتعذر علينا تحقيقه، بينما بتجاهلنا سبيل السلام فإن كل مخططاتنا ستفضي إلى خسارة تامة. وهذا ماعبّر عنه حقيقة الحديث النبوي الشريف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: - «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»[10].

إنّ هذا الحديث النبوي الشريف هو تعبير عن سنن الفطرة، وهي ليست بسنة أو قانون مبهم أو غامض بأي حال، فكل شخص يمكنه فهمه. إنّ قانون الفطرة وسنتها قررا أن التخطيط السلمي -في هذا العالم وحده- قادر على تحقيق النجاح، والتخطيط المبني على العنف لا يمكنه النجاح على الاطلاق.

الأساس المنطقي وراء ذلك المبدإ الفكري هو أنه عندما يختار الإنسان الأسلوب السلمي، فإنه يختار المشي على طريق اللامواجهة، ولهذا يجد الطريق الواضح الأفق ليكمل مسيرته فيه كما رسم وخطط له. من جهة ثانية، عندما يختار طريقة العنف ستنتهي مسيرته بالمواجهة والصدام، وفي هذه الحالة سيواجه المرء كل لحظة بالعقبات من الطرف الآخر. إنّ هذا النوع من المسير مخالف للسنن الفطرية، ولذلك فإنه سينتهي بالفشل. طبقاً لتدبير الخالق للأمور، فإن كل

10- صحيح مسلم، حديث رقم (2593).

شخص حر في اختيار ما يشاء، وذلك يعني أن طريق الحياة ليس طريقاً في اتجاه واحد. في كل لحظة تأتي مركبات أخرى من الجانب المعاكس، ولهذا يجب على المرء أن يكون قادراً على التعامل مع ذلك الدفق من السيارات. إن فن إدارة القيادة هو ما يسمَّى بالسلام.

بالنظر إلى الواقع، فإن السبيل الوحيد لضمان النجاح هو تبني استراتيجية مزدوجة في إعداد المرء لمخططه، ذلك بأن يسعى نحو تحقيق أجندته، بينما في الوقت نفسه يجب عليه أن يتأقلم ويتكيف مع أنشطة الآخرين، وذلك الأمر شبيه بالمشي على حبل مشدود، ولكن من الممكن القيام به عبر التخطيط المناسب.

في هذا العالم يستطيع الشخص ممارسة حريته بأي شكل وبأي طريقة يريد، ولكنه لا يستطيع تغيير التدبير والمخطط الإلهي للأمور، المرء أمامه خياران: إما أن يتأقلم ليتوافق مع الخطة الإلهية ويحقق النجاح، أو أن يسير خلافاً لها ويكون مستعداً لمواجهة الإخفاق، فليس هناك خيار آخر لأي أحد.

كان هناك رجل مغرماً بالأشجار، أراد رؤية الأشجار في حديقة منزله، وظن أنه إن قام بزراعة شتلة أو شجيرة فإنها ستستغرق وقتاً طويلاً لتنمو وتصبح شجرة، فقرر أن يغرس شجرة كاملة النمو، وكلف عدة عمال بالحفر واستخراج شجرة كبيرة ونقلها إلى حديقته.

كان الرجل في غاية السرور، ويقول في نفسه (لقد قمت برحلة طويلة خلال يوم واحد، إن زراعة الشتلة أو البذرة سيكون عملاً طويلاً، والآن فإنني وجدت طريقاً سريعاً للحصول على شجرة خضراء يافعة). وفي صباح اليوم التالي، عندما نظر للشجرة وجد أن أوراقها بدأت في الذبول، وبعد عدة أيام جفت الشجرة بالكامل، كان عندها محبطاً، وعندما قام أحد

أصدقائه بزيارته، وجده في مزاج حزين جداً، وعندما سأله عن السبب قال له: - «كنت في عجلة من أمري ولكن الله ليس كذلك».

هذه القصة تخبرنا بأن الذي يسير عكس السنن الكونية لن يحقق النجاح أبدا. إن السنن الكونية لا تنطبق فقط على الشجرة، بل إنها سنن للكون كله، ففي أي مجال يجب على المرء إتباع المسلك الفطري الطبيعي، وإلا فإنه لن يستطيع تحقيق أي هدف أو غاية جديرة بالذكر.

هذا المبدأ ينطبق أيضاً على الثقافة الإرهابية، إن هذا النوع من الثقافة سوف يفشل على الدوام على الرغم من أن مقترفي الأعمال الإرهابية يمكن أن يبرروا أفعالهم بمصطلحات جميلة وجذابة.

قبل القيام بأي عمل، على المرء التفكير دائماً فيما إذا كان تخطيطه يتفق أو لا يتفق مع السنن الكونية، فإذا كان كذلك، فإنه سينجح وإلا سيتعرض للخسارة والفشل.

سياسة المشاركة اللاتصادمية

إن العدد التقريبي للنجوم في الكون يبلغ حوالي 100 اقتيليون، أو 10 اس 29، وعدد الكواكب في الكون يبلغ حوالي 10 اس 24. ذلك العدد الهائل من النجوم والكواكب يتحرك بصورة دائمة مستمرة في هذا الكون الواسع منذ مليارات السنين، على سبيل المثال، الأرض تدور باستمرار حول الشمس، وكذلك الحال مع الكواكب الأخرى التابعة للنظام الشمسي، فهي تدور حول الشمس ولا تخرج عن مداراتها المحددة والدقيقة، ولملايين السنين تلك الأجسام السماوية تتبع مسارات محددة دون خلل في الحركة أو تصادم أحدها بالآخر.

إنها حقيقة، إن عدداً من التصادمات حدثت في الكون، ولكن تلك الظواهر صممت من أجل تطوير هادف للكون، والذي يتطور ويتوسع باستمرار. تلك العمليات تم التخطيط لها بشكل جيد وتهدف لخدمة غرض نافع.

إن ذلك الانسجام الذي يتميز به الكون جاء ذكره في القرآن الكريم مع الإشارة للأرض والقمر، قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾، (سورة الأنبياء 33).

إنها سياسة المشاركة اللاصدامية التي أسست لسلام كامل في هذا الكون الفسيح، تلك هي ثقافة العالم الكبير، وهي الثقافة نفسها التي تظهر جلية على مستوى العالم الدقيق، الذرة أصغر المواد المادية في العالم، تحمل الثقافة نفسها، فهي تحتوي عدداً من الجزئيات الصغيرة تتحرك باستمرار. ولكن يوجد السلام نفسه في عالم الذرة كما هو الحال في عالم الكون الكبير.

يوجد على وجه الأرض حوالي خمسون مليون فصيلة حيوانية كبيرة وصغيرة، وبالمثل يوجد سلام كامل في عالم الحيوان، إن حروباً كالحرب العالمية الأولى أو الثانية لم تظهر على الاطلاق في عالم الحيوان، كل تلك المخلوقات الحية تنشغل بنشاطات كثيرة مختلفة، فكيف ساد وعمّ السلام الكامل بينها؟ والإجابة، هى أن الحيوانات تبنت أو نهجت الثقافة نفسها وهي المشاركة واللاتصادمية. إن الفارق الوحيد أن العالم المادي اتبع ذلك تحت تأثير قوانين الطبيعة، وعالم الحيوان والكائنات الحية تبنّى ذلك نتيجة للفطرة التي جبل عليها.

إن الثقافة ذاتها، ثقافة المشاركة وعدم التصادم مطلوبة في العالم البشري، إن كل شخص رجل وامرأة حر في ممارسة نشاطاته،

والقيد الوحيد على حرية الرجل والمرأة أن لايشكل أذى على أقرانه أو أقرانها، بعبارة أخرى على الإنسان أن يختار الثقافة ذاتها، وهي ثقافة المشاركة واللاصدامية. إنها الصيغة الوحيدة لإحلال سلام قائم على السنن الكونية.

إن ثقافة المشاركة واللاصدامية تحلل السلام، والسلام يشرع الأبواب أمام كل أنواع الفرص. وبانتهاز تلك الفرص يمكن لكل رجل وامرأة تحقيق أهدافهما. بكلمات أخرى إن كل شخص لديه الفرصة لتحويل ما هو محتمل (مأمول)، إلى حقيقة واقعة.

تلك هي السنن الكونية، وهذه الشرعة والسنة الكونية هي ما تم اختياره في الإسلام، هنا سأذكر معلومتين ذات صلة، قبل الهجرة سنة (622م)، عندما كان رسول الإسلام في مكة، نزلت هذه الآية القرآنية: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، (سورة الكافرون 6).

بعد الهجرة عندما استقر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، أكد على المبدأ نفسه (حرية الاعتقاد)، في ذلك الوقت تقريباً نصف سكان المدينة من اليهود والنصف الآخر من المسلمين، أصدر النبي صلى الله عليه وسلم، الوثيقة التاريخية المسماة بصحيفة المدينة، والتي أعلن فيها، (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم)[11]، أي لكل الدين الذي يرتضيه. ذلك المبدأ وهو أن سياسة المشاركة والا صدامية، قائم على مبدأ خالد، والذي هو قائم سابقاً في العوالم غير البشرية، وهو أيضاً أمر ضروري في عالم البشرية. تلك الثقافة ستكون متبناة من أهل الجنة أيضاً كما ذكر القرآن الكريم في هذه الكلمات: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾، (سورة يونس 25).إن سياسة المشاركة واللاصدامية

11- ابن هشام، سيرة ابن هشام، مصر، مصطفى الحلبي وأبنائه، 1955، مجلد1، ص 503.

تمنح كل شخص رجل وامرأة مجالاً للعيش دون أن يتسبب في الأذى للآخرين من الجنس البشري، إنها الصيغة الوحيدة لتحقيق السلام والانسجام.

إن المشاركة اللاصدامية تضمن لكل شخص الحصول على فرص متساوية ليتطور، وتلك الثقافة قائمة في الكون كله، والفارق الوحيد كون أنه في العوالم غير البشرية، فإنه قائم في ظل السنن الكونية الطبيعية، بينما الإنسان هو من يختار حراً بنفسه تلك الثقافة، إن التفكير الإنساني معني بالاختيار الذي يقوم به، ولذلك فإن ظاهرة التطور العقلي توجد فقط في العالم البشري وليس في العالم اللابشري.

سياسة المفاصلة (الفصل)

العالم البريطاني اي كيليت (1864 - 1950)، كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم، في كتابه مختصر تاريخ الأديان، قائلاً: - «لقد واجه (النبي صلى الله عليه وسلم) الشدائد والمصائب بعزم وتصميم لينتزع النجاح من الفشل والإخفاق»[12].

ما هو الأسلوب والمنهج الذي قاد النبي صلى الله عليه وسلم لذلك النجاح الباهر؟ لقد كان ذلك النجاح من خلال تبني سياسة المفاصلة بين مسألتين، أحد الأمثلة على ذلك أنه في سنة 610 ميلادياً، بدأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم رسالته في مكة، للدعوة إلى عقيدة التوحيد، وهي الإيمان بإله واحد وعبادته وحده لا شريك معه، كان ذلك في الربع الأول من القرن السابع الميلادي، وفي ذلك الوقت كان جل العرب من عبدة الأصنام.

12- E.E. Kellet, A Short History of Religions, London, Victor Gollancz Ltd., 1993, p. 334.

قبل أربعة آلاف سنة سابقة لذلك، بنى النبي إبراهيم عليه السلام مسجداً في مكة لعبادة إله واحد، ذلك المسجد أطلق عليه اسم الكعبة، ولكن في فترات لاحقة، قام عبّاد الأصنام من مختلف القبائل العربية بوضع أصنامهم حول الكعبة، حتى بلغ عدد الأصنام المحيطة بالكعبة ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين صنماً.

بالنظر لكون الرسول صاحب رسالة توحيد، كان ذلك بمثابة أكبر مشكلة تواجه النبي صلى الله عليه وسلم، ظاهرياً ما كان يتوجب عليه القيام به، هو البدء في تطهير الكعبة من الأصنام، ولو تطلب الأمر اللجوء إلى المواجهة العنيفة مع السدنة القيمين على الكعبة.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم حلل الوضع بترو وسكينة، وانتهى إلى خلاصة أن وجود الأصنام في مكة حول الكعبة على الرغم مما يحمله ظاهرياً من عامل سلبي، إلا أنه يحمل جانبا إيجابيا، وهو أن تلك الأصنام مرتبطة بالعديد من قبائل عربية في الجزيرة العربية، فإن الناس سيأتون إلى مكة من مختلف الجزيرة العربية طول العام لزيارة أصنامهم، لذلك سيوجد بشكل يومي بالكعبة وحولها تجمعات لأعداد معتبرة من الناس.

لقد لجأ النبي إلى سياسة الفصل بين مسألتين: وجود التماثيل في الكعبة المشرفة واجتماع الناس حول الكعبة. قرر النبي تجاهل الأصنام وعمل على الاستفادة من وجود الزوار لتبليغ رسالة الله لهم ولقد التزم النبي عليه الصلاة والسلام بهذه السياسة لمدة 13 عاماً حتى اعتنق عدد كبير من أهل مكة الإسلام... هذه هي الاستراتيجية الحكيمة التي وصفها أي. اى كليت بالعبارة السابقة الذكر.

هـذا المبـدأ الـذي لجـأ إليـه النبـي محمـد لم يكـن مـن المبـادئ الدينيـة لا بـل قـام هـذا المبـدأ عـلى قانـون الطبيعـة أو سـنة الخلـق بتعبـير آخـر ووفقـا لقانـون الطبيعـة فـإن هـذا المبـدأ ينطبـق عـلى الجميـع سـواء أكانـت قضيتهـم دينيـه ام دنيويـة.

في الحقيقـة ووفقـا لهـذا القانـون يصاحـب كل الأحـوال امـران، ألا وهـما المشـاكل والفـرص ولا يمكن بأي حـال أن يوجـد أحداهما ويغيب الآخـر: بأن توجد المشـاكل وتنمحـي الفرص، ولهذا السـبب فإن الحكمة تقتـضي أنـه قبـل الـشروع في مهمـة مـا يجـب مراجعـة الأمـر بطريقـه واقعيـه بعيـدا عـن العواطـف، والامتنـاع عن العمـل عندما يكـون نظر الإنسـان وعقلـه لا يرى سـوى المشـاكل، لأن أسـلوب العمـل هذا نقيض ومخالـف للسـنن الكونية.

إنّ مبدأ الفصل يمنع الإنسـان من اللجوء إلى العنف وباسـتعمال وسـائل السـلم سـيحقق أهدافـه. الوسـيلة الوحيـدة العمليـة في هـذه الدنيـا هـي التـي تقـوم عـلى أسـاس التخطيـط الإيجـابي المتمثـل في الإعراض عن المشـاكل واكتشـاف الفرص والاسـتفادة منها بأعلى قدر... وفقـا لقانـون الطبيعـة فـإن هـذا هـو التخطيـط الواقعي الـذي وحده دون سـواه سـيكتب لـه النجـاح ويحقـق كل الأهـداف المطلوبة.

يبرهـن المتورطـون في أعـمال العنـف في هـذا العـصر عـلى جهلهـم وعـدم درايتهـم بمبـادئ النجـاح ومقوماتـه التـي تقـوم عـلى سياسـة «المفاصلـة» وبمـا أن هـؤلاء يسـيرون ضـد قانـون الطبيعـة وخلافـه فلن يكتـب لهـم النجـاح أبـدا في هـذه الدنيا وقدرهـم هو أن ينحتـوا تاريخاً مـن الدمـار ولن يتمكنوا أبـدا من صنع تاريخ التقدم والرقـى والازدهار. إن سـنة اللـه في الكـون اقتضـت أن سـبيل العنـف لـن ينجـح وطريـق السـلام سـيكتب لـه كل النجاح.

تحقـق الأعـمال القائمة على السـلام نتائجهـا المرجوة في هـذه الدنيا أمّـا الأعـمال التـي تقوم عـلى العنف فمصيرها دائما الفشـل مثـل المزارع يرمـى القنابـل في الحقـل ويتوقع ظهـور حدائق غنّاء.

قوة السلام أعظم من قوة العنف

شوباس كاندرا بوز (1897 - 1945م)، كان قائداً عظيماً في الهند، والهدف الذي رسمه لنفسه هو تحرير الهند من الحكم البريطاني، وتقدم للهنود بهذا الشعار: (أعطوني الدماء أمنحكم الحرية). ولقد منحه الشعب الهندي الدماء عبر الجيش الوطني الهندي، مع ذلك تلك الاستراتيجية فشلت بالكامل، وشوباس كاندرا بوز نفسه مات في حادث قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه.

برز المهاتما غاندي قائداً حقيقياً للكفاح الهندي للتحرير، غير أنه اختار أسلوباً ومنهجاً مغايراً لتحقيق هدفه، كان ذلك عن طريق السلام، كان شعاره الذي اختاره لقومه: (ساعدوني في نشاطاتي السلمية، وأنا سأمنحكم الحرية). إن استراتيجية غاندي السلمية أدت دورها ونجحت الهند في الظفر بالحرية والاستقلال، في 15 أغسطس 1947م.

إن استراتيجية شوباس كاندرا بوز التي أسست على الكفاح المسلح، تلك كانت من شأنها أن تثير العنف المضاد من الحكام البريطانيين، الذين كانوا في موضع أكثر قوة. وبالتالي فإن استراتيجية شوباس كاندرا بوز لم تجد نفعاً، واستمر الحكام الأنجليز في مواقعهم.

كان أسلوب عمل غاندي ورؤيته على النقيض، فهو عندما أعلن بأنه سيواصل كفاحه من أجل نيل الحرية والاستقلال، كان من خلال قوة السلام وليس من خلال قوة العنف، مما أفقد الحكام الأنجليز أي

مبررات لاستخدام العنف من جانبهم، لقد قيل إنه بعد إعلان غاندي ذلك، أبرق الحاكم الأنجليزي بالهند برسالة إلى حكومته جاء فيها: (يرجى تعليماتكم عن كيفية قتل نمر مفترس دون معركة).

تبين التجربة السياسية الهندية المذكورة آنفاً أن قوة السلام أكثر نجاعة بكثير جداً من قوة العنف.

والمثال التاريخي المشابه فهو من سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لقد بدأ مهمته سنة 610 ميلادياً في الجزيرة العربية، في ذلك الوقت كانت الجزيرة العربية قبلية في ثقافتها، بسبب سيطرة ظروف ذلك العصر، كانت هناك مناوشات حربية بين النبي صلى الله عليه وسلم وأعدائه، وظل الوضع كماهو دون حل أو تسوية.

لذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم، بحكمة تمكن من الوصول لاتفاق سلام، سجله التاريخ تحت صلح الحديبية سنة (628م)، كان ذلك اتفاق صلح لوقف الحرب بين الطرفين، ونتيجة لذلك الصلح، تحصل النبي صلى الله عليه وسلم على فرص جمة لصالح إنجاز مهمته من خلال الأنشطة السلمية، وهذا بحق أثبت أن ما قام به النبي معجزة، فخلال سنين قليلة قبلت الجزيرة العربية كلها عقيدة النبي صلى الله عليه وسلم.

شهد الكاتب الأمريكي مايكل هارت بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الشخصية الأعظم نجاحًا عبر التاريخ.[13] ولكن ماهو سر ذلك النجاح الأسمي؟ لقد كان بالتأكيد «السلام» ومن خلال التخطيط السليم، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسى السلام في الجزيرة العربية، وهو ما مكنه وأصحابه من الاستفادة من فرص ظهرت بعد ذلك. أن نجاح النبي -صلى الله عليه وسلم- المعجز كان بسبب استرتيجيته السلمية.

13- Michael H. Hart, The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History, New York, Citadel Press, 1978, p. 3.

إن السياسة العامة للنبي صلى الله عليه وسلم ذكرت في الحديث التالي: - «ما خُيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ بأيسرهما»[14].

وهنا، فإن الأمر الأيسر هو سبيل السلام، والأمر الأصعب هو طريق الحرب، لقد كانت السياسة التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم هي التي جعلته ناجحاً للغاية.

إن نطاق التخطيط السلمي يوجد في كل مكان وفي جميع الأوقات، والشرط الأساس الوحيد له هو الصبر، لأن الصبر يمنح القدرة على تحليل الأوضاع والوقائع بعقلية موضوعية، عندما يتحرر المرء من التحامل والتحيز، يصبح ذو تخطيط فائق، اعترف المؤرخون عموماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان رجلاً ناجحاً جداً عبر تاريخ العالم، والسبب وراء نجاحه العظيم يكمن ببساطة في وضوح أفكاره حول التخطيط في ظل الحدود والسبل السلمية.

لماذا يعد السلام أكثر قوة من العنف؟ السبب هو أن اللجوء للعنف يجعل الخصوم يتكبدون الخسارة، في حين أن من يلتزم بالطرق السلمية يجعل نفسه أقوى، إن هدف منهج استخدام العنف هو أسلوب سلبي، بينما المنهج السلمي هو أمر إيجابي، إن من بداهة الحياة أنه مهما ألحق طرف ما خسائر بالطرف الآخر، فإن تلك الأعمال والخسائر لن تزيد من قواه الذاتية، إن سر النجاح هو أن يجعل المرء نفسه أكثر قوة، وذلك الأمر ممكن تحقيقه فقط عندما لا يضع المرء هدفاً سلبياً لنفسه، بل بالأحرى صوغ سياسته في نظرة تهدف إلى نتيجة إيجابية.

14- صحيح البخاري، حديث رقم (3560).

الأمثلة التي قدمها النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان يوسف عليه السلام نبياً من أنبياء بني إسرائيل، وكان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً من بني إسماعيل عليه السلام، وكلاهما عدا من بين الأديان السامية، وكلاهما كان فائق الإنجاز.

قدم النبي يوسف -عليه السلام- إلى مصر القديمة حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد، في ذلك الوقت كان ملوك الهكسوس حكام مصر، في ذلك الزمان حلت مجاعة كبيرة بمصر، ولكن نبي الله يوسف -عليه السلام- ابتكر خطة لإنقاذ البلاد من المجاعة، في تلك اللحظة نصَّب ملك مصر يوسف عليه السلام في منصب رفيع في حكومته، هو إدارة موارد وخزائن الدولة {**خزائن الأرض**} (سورة يوسف 55)[15]، بحسب الكتاب المقدس قال الملك ليوسف عليه السلام: «سوف تكون سيداً على بيتي، وكل شعبي سيخضع لأوامرك، سأظل أنا أعلى منك باعتبار العرش»[16]

لقد تقبل نبي الله يوسف المنصب المقدم له من الملك واستمر فيه ربما إلى حين وفاته، وقد أشار القرآن الكريم لتلك القصة كـ ﴿ أحسن القصص ﴾[17]، فكيف صارت قصة يوسف -عليه السلام- أحسن القصص؟ تم ذلك من خلال الالتزام والعمل بالحكمة، وظلت السلطة والسيادة في البلاد بيد الملك، واختار نبي الله يوسف صيغة التكيف السياسي.

15- قال تعالى : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

16- The Bible, Genesis 41: 40.

17- قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾، {سورة يوسف 3}.

في الآيـة الكريمـة المذكـورة سـابقاً (أحسـن القصـص)، يعنـي أفضـل طريقـة، إن منهـج العمـل المتبـع مـن النبـي يوسـف -عليه السـلام- أنه لم يحـاول أبـداً أن يخلـع الملـك، بـل إنـه قبل الوضـع السـياسي القائم في وقتـه، وكانـت النتيجـة معجـزة، لقـد كان يوسـف -عليه السـلام- قـادراً عـلى إصـدار الأوامـر في كل شـؤون مـصر القديمـة عـلى الرغـم مـن عدم اعتلائه العرش، إن ذلك المنهج هو الذي جعل سـيرته (أحسـن القصص)، لقـد ضرب اللـه -تعـالى- هذا المثال من خلال نبيه يوسـف عليه السـلام حتـي تقتـدي بـه الأجيـال اللاحقـة، ويحققـوا النجـاح بالطريقة نفسـها التـي سـلكها النبي يوسـف عليه السـلام.

القصـة الأخـرى هي قصـة النبي محمد صلى الله عليه وسـلم، لقد بـدأ رسـالته في النصـف الأول مـن القـرن السـابع الميـلادي في الجزيـرة العربيـة، في ذلـك الوقت كانـت الجزيرة العربية منطقة يسـيطر عليها الـشرك، وكانـت مكة مركـز ثقافة عبـادة الأوثان.

عندمـا بـدأ النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم دعـوة التوحيـد عارضه كل قـادة القبائـل. وخلقـوا جميـع أنواع المشـاكل لـه ولأصحابه رضوان اللـه عليهـم، ثـم في سـنة 628 ميـلادي، في الحديبيـة عـلى بعـد عـشرة أميـال مـن مكـة المكرمـة، بدأ النبـي صلى اللـه عليه وسـلم مفاوضات لإحـلال السـلام في الجزيـرة العربية، لقـد كان رؤسـاء القبائل معارضين بشـدة للدخـول في أي اتفـاق سـلام مـع محمد صـلى الله عليه وسـلم، وقبـل النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم - بمنتهـي الحكمـة- كل الـشروط المقدمـة مـن الجانـب المعـادي، وفي المقابـل وقّعـوا صلـح الحديبيـة الـذي نـصّ على وقـف الحـرب لعشر سـنوات.

بعـد توقيـع صلـح الحديبية حلـت في جزيـرة العرب حالة اسـتقرار طبيعية، فعمل النبي صلى الله عليه وسـلم جهده ودون إضاعة للوقت

في نـشر دعوتـه في الجزيـرة العربيـة والمناطـق المجـاورة. كانـت النتيجة معجـزة، ففـي سـنوات قليلة قبلـت الجزيـرة العربية كلها دين الإسـلام.

لقـد كان صلـح الحديبيـة تعبيراً عـن المنهج السـلمي، وبالعمل في ضـوء هـذا المنهـج بـرز النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم سـيد الوضع في شـبه الجزيـرة العربيـة في ذلـك الوقـت. إن النبي يوسـف عليه السـلام حقـق النجـاح بقبولـه سـلطة حكـم الملـك، وفي المقابـل منحـه الملـك الفرصـة لإدارة كل شـؤون البـلاد في المجـال السـياسي.

الأسـلوب نفسـه الـذي اختـاره النبي محمـد صلى الله عليه وسـلم مـع اختـلاف الطريقـة، لقـد قبـل السـلطة السياسـية لزعـماء القبائل، ومـن خـلال التخطيـط وانتهـاز الفرصـة المتاحـة في الميادين غـير السياسـية، كانـت النتيجـة معجـزة أو مذهلـة، ظهـر النبـي صـلى الله عليـه وسـلم قائـداً أو زعيـماً لشـبه الجزيـرة العربيـة.

إن منهـج النبـي يوسـف -عليه السـلام- يشـار لـه في القـرآن الكريم بـ﴿ **أحسن القصص** ﴾ سورة يوسف 3،[18] بينما يشار لنتيجة التخطيط النبوي في الحديبية بـ﴿ **الفتح المبين** ﴾، سـورةالفتح 1.[19]

إن جوهـر كلا المنهجـين هـو عـدم اختيـار المواجهـة في ميـدان السياسـة واسـتثمار الفـرص في المجـالات اللاسياسـية. فمـن المؤكـد أن المـرء سـيخرج منتـصراً.

إن الطريقـة التـي اتبعهـا عـلى التوالي نبـي الله يوسـف ونبي الله محمـد صـلى الله عليهما وسـلم، لا تتعلق فقط بالزمـن الماضي، ولكنها

18 - قوله تعالي : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾.

19- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾.

قابلـة للتطبيـق في أي زمـان وإلى يومنـا هـذا. وهـذه الطريقـة مجدية وقابلـة للتنفيـذ. فذلـك المبـدأ هو مبـدأ عالمي أو كـوني، ولا يوجد مبدأ آخـر يمكـن أن يعمل في أوضـاع مماثلة.

استراتيجية العزل

وقعت غزوه الخندق سنه 621 حينما قرّر معارضو نبي الإسلام الهجوم على المدينة، ولكن الإدارة الحكيمة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم جنبت المسلمين القتال ذلك أن النظام الاستخباراتي المنظم علم أن جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل يسير نحو المدينة المنورة قادما من مكة التي تبعد 450كم... انسجاماً مع سياسته العامة رأى النبي تجنب القتال وبعد أن شاور أصحابه قرّر أن أفضل السبل للمواجهة هو حفر الخندق خارج المدينة في المنطقة المفتوحة أما الجهات الثلاث الأخرى لم يكن من الممكن اختراقها بسبب السلسلة الجبلية المحيطة بالمدينة وحقول النخيل ذات الكثافة الزراعية العالية.

عمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لمدة عشرة أيام وعشر ليالٍ حفر خلالها الخندق بطول 5540 متراً وعرض 4.6 أمتار وعمق 3.2 أمتار. عندما وصلت قريش وأحلافها مشارف المدينة المنورة وجدوا مدخل المدينة مقفلاً الأمر الذي أجبرهم على التخييم خارج المدينة، وبعد أسبوعين من التردد والإحباط أجبروا على التراجع والعودة إلى ديارهم.

كان هذا مثالاً لسياسة أو استراتيجية الحواجز (Buffer Strategy) حيت أصبح الخندق حاجزاً بين الفريقين منع بفاعلية وقوع القتال.

في هذا العصر تتوفر استراتيجية الحواجز (Buffer) على نطاق أوسع. تأسست الأمم المتحدة سنه 1945م وتوسعت لتضم أعضاء جميع دول

العالم تقريبا وبموجب الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة تقرر بتوافق الآراء أنه إذا هاجمت دولة أي دولة أخرى، فإن الأمم المتحدة تتدخل لوقف الاعتداء. أحد الأمثلة الناجحة يتمثل في اجتياح العراق لدولة الكويت سنة 1990م الأمر الذي جنب دولة الكويت الدمار.

الأمم المتحدة من هذا المنظور نعمة عظيمة لكل دول العالم لأنها -أي الأمم المتحدة- أصبحت حاجزاً مؤسسياً يتمتع بالصفة القانونية.

تعتبر استراتيجية الحواجز فعالة بصورة كبيرة لمنع الحرب، فبينما كانت قابلة للتطبيق على نطاق محدود في القرن السابع الميلادي صارت في القرن الحادي والعشرين وسيلة غاية في التنظيم لمنع الحروب. وأصبحت القاعدة وليست استثناء لتشمل كل دول العالم. اليوم طورت الحضارة الحديثة طريقة جديدة جداً لمنع الاشتباكات وتجنبها ألا وهي الحوار السلمي.

عن طريق الحوار السلمي وبمساعدة التقنيات الحديثة أصبح من الممكن تحويل صراع العنف إلى ساحة النقاش الفكري. وهذا شكل آخر لاستراتيجية العزل المؤسسي (إقامة الحواجز) التي تحدث في هذا العصر.

إذا استعمل كائن من كان استراتيجية الحواجز في التعامل مع الاشتباكات الوشيكة الوقوع سيتعامل بنجاح مع كل التحديات والمشاكل المصاحبة. فاستراتيجية الحواجز هي أحد أهم السبل لتحقيق أو صناعة السلام وكل ما يحتاج الإنسان للاستفادة منها هو التحلي بالصبر والتخطيط القائم على الحكمة.

لا حاجة للحكمة لدخول دوامة العنف والمواجهات المسلحة، فكل غبي يمكنه فعل ذلك ولكن إقامة السلام والحفاظ عليه يتطلب مستوى عالياً من الحصانة والتخطيط، والذي يفقه كيفية التعامل مع

التحديات والمشاكل الطارئة بالتخطيط الحكيم سيختار دائما سياسة عدم الوقوع في دوامة العنف والمواجهات المسلحة.

تقتضي الحكمة وجوب العمل باستراتيجية الحواجز عندما تكون الأوضاع وشيكة الانفجار، بغية منع الأطراف المتعادية الى اللجوء الى المواجهات المسلحة ولقد استعملت هذه الاستراتيجية على نطاق محدود في العصور الماضية ولكن اليوم أصبحت لهذه الاستراتيجية مؤسسة عالمية.

التطور الكبير في مجال الاتصالات خاصه مكّن بصورة كبيرة من فتح الحوار وتبادل الآراء... تحرير الفكر في الحقيقة وانتشار التعليم مكّن كل الأفراد والجماعات العمل بهذه الاستراتيجية.

الفصل الرابع:
شهادة التاريخ

بين المثالية والبراغماتية

الفلاسفة والمصلحون على مر العصور مهووسون بمفهوم المثالية. بعضهم أراد حكومة مثالية وفشلوا فى ذلك، وبعضهم حاول إنشاء مجتمع مثالي، ولكنهم أيضا فشلوا في ذلك، وآخرون أرادوا إقامة عدالة مثالية في المجتمع ولكنهم على الرغم من كل التضحيات فشلوا فى تحقيق أهدافهم.

ماهو السبب وراء كل هذه الإخفاقات؟

لقد أدرك الصواب من قال إن المثالية غير قابلة للتحقيق، والسبب هو أن الإنسان يولد بعقل مثالي التفكير، ولكن العالم الذى نعيش فيه أقل مثالية. لقد استهلكت الإنسان الرغبة في الوصول إلى المثالية، ولكن قدره أن يعيش في دنيا بعيدة عن المثالية... عبر أحد العلماء المشهورين بقوله (يبدو أن الإنسان موجود في عالم لم يصنع لأجله).[20]

يمكننا أن نعزو كل هذا الاضطراب في المجتمعات البشرية لهذه الحقيقة... كل الرجال والنساء في هذه الدنيا يريدون الحياة وفقاً وانسجاماً مع طريقة تفكيرهم المثالية، ولكن لاختلاف سنة الحياة يعجز هؤلاء عن تحقيق أهدافهم...، هذا الفرق بين إحساسنا بالمثالية والواقع الذي نعيشه، يخلق مشاكل فتتملك الناس مشاعر الغضب نتيجة لذلك الأمر الذي يقود إلى حال من الغضب والشكوى ثم الاعتراض، وقد يؤدي في نهايته إلى العنف والقتال كوسيلة لتحقيق أهداف تبقى دائما بعيدة المنال.

20- James Jeans, The Mysterious Universe, Cambridge, Cambridge University Press, 1930, p. 3.

الطريقة الوحيدة لإقامة السلام في هذه الدنيا هو قبول معادلة البراغماتية. إنها لمن أعظم الحكم أن يرضى الإنسان بأهداف واقعية (براغماتية) عندما يتعذر عليه تحقيق الأهداف المثالية. إن المثال التوضيحي يقدمه الإسكندر الأكبر الذي ورث أرض اليونان وصار ملكاً عليها، بالنسبة إلى الإسكندر لم يكن حكم اليونان مثالياً لأن رغبته كانت حكم العالم، وسعى بجيوشه لتحقيق هذا الهدف، ولكن التاريخ يخبرنا أن الإسكندر -وكلّه خيبة أمل لهزيمته- توفى سنة 323 قبل الميلاد في بابل، وهو فى عمر 32 سنة. كان حكم اليونان هو الخيار البراغماتى بالنسبة للإسكندر الأكبر، ولكن لنزعته ونزوته السياسية اختار حكم العالم، وذلك انسجاماً مع طريقة تفكيره، لقد كان خيار الإسكندر خيارا مثالياً، ولكن وفقا لطبيعة الخلق، فالمثالي غير قابل للتحقيق، ولو أن الإسكندر لجأ إلى الخيار البراغماتي لكتب له النجاح دون أدنى شك، ولكنه في سعيه خلف المثالي فقد ماسبق له تحقيقه.

هذا حال كل البشر تقريباً.. يقول المثل الياباني (إذا ركضت خلف أرنبين تفقد كليهما)، بإجراء تحوير طفيف على هذا المثل يمكننا القول إن من سعى وراء الاهداف المثالية سيفقد كلاً من الأهداف المثالية والأهداف القابلة للتحقيق.

بسبب هذا الهوس يعاني الناس عموما من ضغوطات الحياة التي تتزايد مما يدفع الإنسان للشكوى والاعتراض، الأمر الذي يقود عادة إلى العنف، هذه السيكولوجية هي الأساس الذي تنطلق منه أعمال العنف، إذا أدرك الناس قانون الطبيعة (السنن الكونية)، من هذا المنطلق سيمكنهم العيش بسلام ويمكنهم أن يهبوا للآخرين حياة السلام.

لقد كان حلم روسيا إقامة الأمبراطورية الشيوعية، الأمر الذي أسهم في انخراط روسيا في الحرب العالمية الثانية... لقد كان هدفاً غير واقعي،

بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي، ولو أنهم لجأوا إلى أهداف واقعية لم يكن التاريخ ليدوِن أن الشيوعية فلسفة تبرر استعمال العنف وسيلة لتحقيق أهدافها المتمثلة في إنشاء مجتمعات غير طبقية.

هذا المبدأ ينطبق أيضا على أولئك الذين اختاروا العنف وسيلة لتحقيق الأهداف... أولئك الذين صنعوا أهدافاً خاصة بهم كمثل إزالة الظلم والعدوان أو تحقيق العدالة المطلقة «المثالية»... أولئك الذين أظهرت تجاربهم - وعلى الرغم من حجم التضحيات لعهود طويلة - أنها لم تحقق أي شيء... كل ما أنجزوه هو تاريخ من الدمار، ولو أنهم لجأوا إلى الوسائل السلمية بدلاً من وسائل العنف، لذكرهم التاريخ كأناس عبروا طريق السلام لتحقيق أهدافهم وغاياتهم.

التخطيط المبني على الحقائق

ذُكر أحد الجوانب لخطة الله في الكون في نص القرآن الكريم ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، (سورة البقرة 155).

هذه الآيات تعني أنه وفقا لخطة الله في الكون (سنن الخلق)، فإن الخسارة جزءٌ أساس في هذه الحياة الدنيا على كلا الصعيدين السياسي وغير السياسي، ولذلك فإن الاستجابة أو الموقف الصحيح هو ضرورة القبول بها لكونها حقيقة وواقعاً، ثم يلي ذلك التخطيط السلمي للمستقبل بعيدا عن مجالات المواجهة. تلك هي الوصفة الحكيمة الوحيدة لتحقيق النجاح في هذه الدنيا، وعلى النقيض من ذلك فإن الذين ينشغلون بالتخطيط لاستعادة مافقدوه محكوم عليهم بالفشل والخسران.

كانت الباكستان جزءاً من شبه القارة الهندية، وقد تأسست سنه 1947 على يد على جناح (1948 - 1876م)، بعد انفصالها عن الهند، ولكن باكستان التي تحصل عليها علي جناح لم ترتق إلى مستوى أحلامه، وفي إحدى خطبه استنكر الحدود الجغرافية المقتطعة للباكستان.[21] تحول ذلك الخطاب لمؤسس الباكستان علي جناح إلى بوصلة تحديد المسار لكل الباكستانيين، ثم أصبح سياسة قومية لدولة الباكستان، تندد وتستنكر الحدود الجغرافية المقتطعة، وفقا لمقترح التقسيم الأول كانت كشمير جزءا من دولة الباكستان، ولكن بعد الانفصال صارت كشمير جزءاً من الهند، الأمر الذي رفضه واستنكره قادة الباكستان مما جعل كل السياسات القومية للباكستان تتمحور حول هدف أن تكون كشمير جزءاً من الباكستان. ولقد عبر عن هذا المبدأ الرئيس بيريز مشرف قائلا: (إن كشمير تجري في دمنا)[22].

بسبب هذا الهاجس انخرطت الباكستان في عدة حروب مع الهند، وأطلقت ما يسمى بحرب الوكالة ضد الهند، قدمت فيها كل الدعم لجيوش غير معلنة. استنفدت الباكستان أكثر من 60 عاماً في محاوله استرجاع كشمير ولم تكلل تضحياتها بالنجاح، بل وعلى العكس من ذلك أثبتت هذه الاستراتيجية كونها سلبية، وأدت إلى نتائج عكسية إلى درجة أن الباكستان في أعين العالم تصنف كونها دولة فاشلة.

المثال الذي تختلف تجربته جذرياً عن الباكستان هو سنغافورة التى كانت فيما مضى جزءاً من ماليزيا، ثم انفصلت عن ماليزيا سنة 1965م. كانت الحدود الجغرافية حدوداً مقتطعة أيضاً، ولكن

21- Rajmohan Gandhi, Eight Lives: A Study of the Hindu-Muslim Encounter, New York, Suny Press, 1986, p. 174.

22- "Musharraf speech highlights, BBC, January 12, 2002," <http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/1757251.stm>, [accessed on July 19, 2015].

مؤسس سنغافورة القائد لى كوان يو (1923 - 2015م) كان رجلاً حكيماً ولم يهدر الوقت في محاولة إعادة توطيد الحدود الجغرافية لسنغافورة، بل كرس ذاته كلية للتخطيط لتطور سنغافورة وتقدمها ورقيها معتمداً على المصادر المتاحة، وبعد مرور 40 سنة من تأسيسها أصبحت سنغافورة إحدى دول العالم المتقدمة.

دخل الفرد في الباكستان هو 4840 دولاراً أمريكياً سنوياً، بينما دخل الفرد في سنغافورة هو 76860 دولاراً أمريكياً. سنغافورة بلد خال من الديون، بينما ديون دولة الباكستان وصلت إلى حد مأهول، وتقدر ب 65 مليار دولار أمريكي. الباكستان مصنفة في الترتيب الثامن للدول الأكثر خطورة وفقاً لاستبانة «الدول الأكثر تهديداً» الصادر في 9 ديسمبر 2014م عن مؤسسة الانتل سنتر بواشنطن، بينما البيانات الصادرة عن وحدة «المعلومات الاقتصادية: يناير 2015م صنفت سنغافورة كونها ثاني أفضل الدول في العالم.

لايوجد سوى سبب واحد وراء هذه الفروقات بين البلدين ألا وهو أن الباكستان بعد تأسيسها نزعت إلى العنف، ونتيجة لذلك دفعت ثمناً باهظاً، ولكن سنغافورة لجأت إلى الأنشطة البنَّاءة ذات الطابع السلمي، وهي اليوم تجني أفضل ثمار هذه السياسات السلمية.

قضية فلسطين لا تختلف، ذلك أنها قُسمت سنه 1948م وفقا لبنود وعد بلفور... رأى العرب أن فلسطين أرض مغتصبة، وبذلوا جهوداً جبارة لاستعادتها، ولكن ومع كل التضحيات الجسام لم يكتب لهم النجاح، ذلك لأنّ كفاحهم لم يكن ضد إسرائيل، ولكن كان كفاحاً في مواجهة قانون الطبيعه (سنة الخلق).

الحقيقـه هـي أن النجـاح في هـذه الدنيا قابل للتحقيـق بالتخطيط وبالوسـائل السـلمية، وهذا يسـتلزم أن يوضع التخطيط آخذاً في الاعتبار المصـادر المتاحـة، وأمّـا التخطيـط الـذي يقوم عـلى المصادر غـير المتاحة سـيقود حتـماً إلى العنـف تجـاه الأعـداء المزعومـين، والذي يقـود بدوره إلى المزيـد من الخسـائر.

التجربـة تبرهـن عـلى أن التخطيـط القائـم عـلى المصـادر المتاحـة يولـد السـلام. إن من مزايا التخطيط السـلمي أن عمليـة البناء والتقدم تبـدأ مـن اليـوم الأول، بينـما التخطيط القائم على المصـادر غير المتاحة سـيجعل عمليـة البناء والتقـدم أمرا رهيناً بالمسـتقبل.

التخطيـط في جوهـره نشـاط سـلمي، يتبعـه بالـضروره تسـخير وترجمـة الامكانـات والطاقـات إلى أفعـال... عندما تنشـغل بالتخطيط فـإن العمليـة برمتهـا تصطبـغ بصبغـة سـلمية، ولكـن عندمـا تحـاول الوصـول إلى أهدافـك بوسـائل العنـف فلـن يكتـب لـك النجـاح.. إن سـنة الخلـق اقتضـت أن مـن كانـت بدايتـه صحيحـة يصـل إلى هدفه ومبتغاه..هـذا المبـدأ يـسري على الـكل، أفراداً وجماعـات. من تورط في أنشـطة العنـف لن تكلل جهوده بالنجـاح، لأن بدايته لم تكن صحيحة، وعـلى العكـس مـن ذلـك، فالأفـراد أو الجماعات التـي تتبنى الوسـائل السـلمية تصـل وبـكل تاكيد إلى النهايـات المرغوبـة لأن أعمالهم بدأت بدايـة صحيحة.

الإرهابيـون قـد يقتلـون النـاس بسـلاحهم وقنابلهـم، ولكنهم ليس بمقدورهـم إلغـاء قانون الطبيعة (سـنة الخلق)... إن تغيير سـنة الخلق فوق قدرة الإنسـان.

أنشطة العنف وأنشطة السلام

ذكر المؤرخ الأنجليزي إدوارد جيبون (1737 - 1794م) Edward Gibbon في كتابه المشهور «تاريخ سقوط الأمبراطورية الرومانية»: (التاريخ حقا ما هو إلا سجل لجرائم وحماقات ومصائب البشرية History is indeed little more than the) (register of crimes, follies, and misfortunes of mankind [23]

هذه ملاحظة سلبية، لكن كل حدث من أحداث التاريخ سواء أكان سلبياً أم إيجابياً، تكمن في طياته دروس وعبر. من هذا المفهوم سيكون من الصواب القول إن التاريخ مليء بالدروس والعبر النافعة.

خاض قادة أوروبا حربين عالميتين، الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918م) والحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م)، فكان مجموع الضحايا من المدنيين والعسكريين لهاتين الحربين ما يقارب 90 مليون نسمة، وتراجع اقتصاد القارة وتكبدت خسائر فادحة ولحقت أضرار بالغة بالأعمال البنّاءة كالتعليم، ولم يدوّن المؤرخون أية نتائج إيجابية انبثقت عن هاتين الحربين.

في القارة الأوروبية عينها، وفي الفترة الزمانية نفسها، كانت هناك بعض الأنشطة تجري مواكبة للحرب، مارس هذه الأنشطة العلماء والمعلمون والمفكرون، وكانت نتائج أعمال هذه النخبة مختلفةً كل الاختلاف، ذلك أنها توّجت بتقدم وتطور عظيم دوَّنه التاريخ، ومنحنا قمة الحضارة المعاصرة.

23- Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Norwalk, The Easton Press, 1974, Chapter 3, p. 69.

يمكننا القول انّ المجموعة الأولى تتكون من أصحاب مذهب العنف، بينما المجموعة الثانية تتكون من أصحاب مذهب السلام، أعمال وأنشطة العنف لم تقدم أي شيء للعالم سواء في الحرب العالمية الأولى أوالحرب العالمية الثانية، أما الأعمال والأنشطة ذات الصبغة السلمية فإنها أهدت إلى العالم حضارة متقدمة لم يسبق لها مثيل. إذا فحصنا كلا الحدثين في ضوء النتائج النهائية، يمكننا أن نقرر مطمئنين أنه بعد أن شهدنا أمثلة عديدة من التاريخ، فإنه لا يوجد مبرر مقبول لأعمال العنف وأنشطته.

لقد حان الوقت لأولئك المنشغلين بأعمال العنف أن يهجروا هذا السبيل إلى الأبد. فلا يوجد من تجرَّع السم مرتين، وبالمثل فلا مبرر مقبول لكائن من كان أن يستمر في العنف وسيلةً ومنهجاً.

إن لعبة النار والدم لا يمكن تبريرها فقط بوصفها وسيلة لتحقيق العدل.. إن حقيقة أولئك الأفراد في نظر الناس ونظر الله هي كونهم مرتكبي جرائم شنيعة قتلة مجرمين.

أولئك المتورطون في ثقافة السلاح باسم الدين لا حجة لهم في هذا العصر... إنّ النتائج السلبية لثقافة العنف لديهم، يذكرها الإعلام المعاصر دون أن يذكر أية نتائج إيجابية... ولو سُئل أولئك الممتهنون ثقافة العنف عن سبب اتباعهم لهذا المسار يكون جوابهم "لتحقيق العدل"، ولكن في الحقيقة لجوءهم إلى العنف هو أعظم شكل من أشكال الظلم... إن لعبة النار والدم لا يمكن تبريرها بوصفها وسيلة لتحقيق العدل، إنّ حقيقة هؤلاء الأفراد في نظر الله ونظر الخلق أنهم مرتكبو جرائم شنيعة قتلة مجرمون.

المتورطون في العنف في هذا العصر من الصواب وصفهم بأنهم أرهابيون، وكل من قُتل على يد مؤسسات العنف هم أُناس أبرياء... إنهم عباد خلقهم الله للقيام بدورهم في الحياة، وأعمال الإرهابيين نقيض لخطة الله منعتهم من تأدية دورهم الذي خلقهم الله لأجله.. هذا العمل من قبل الإرهابيين لا شك أنه من أبشع الجرائم، ومرتكبو هذه الجرائم بعيدون عن عفو الله ومغفرته.

تبين دراسة التاريخ أن التاريخ البشري مليء بالحروب، وفي كل الحالات قادت الحرب إلى خسارة في الأرواح ودمار في الممتلكات.

يمكن القول إن الأولين الذين خاضوا حروباً معذورون، لأنه لا علم لهم ولا دراية بسوء عاقبة الحرب، ولكن أولئك الذين يواصلون على هذا الدرب بعد إدراكهم وعلمهم بالنتائج السلبية للحرب لا يمكن إسقاط الذنب عنهم.

صارت الحرب في مفهوم العصر الحديث أمرا فاقد الأهمية، وأصبح هذا العصر عصر الفرص، حيث تضاعف حجم الفرص المتاحة إلى درجة أن كل ما يريد المرء تحقيقه اليوم يمكن تحقيقه بنهج سبل السلام.

سيكون من الصواب القول إنه في هذه الظروف المعاصرة أن الحرب والعنف ليسا خياراً. إنّ الأمر الذي استحال تحقيقه في الماضي بالمواجهة يمكن تحقيقه بنجاح في هذا العصر باستغلال الوسائل السلمية لا غير.

إتباع الطرق السلمية اليوم، مثله مثل أن تترك الشجرة لتنمو، بينما اختيار وسيلة العنف هو اجتثاث للشجرة من جذورها. إنّ مهمتنا هي أن نغرس الشجرة لا أن نقطعها، هذا من المسلمات

التـي تنطبـق عـلى عـالم النبـات ولكنهـا أيضـا تنطبـق بطريقـة مباشرة عـلى المجتمعـات البشريـة.

تنبؤ ثبت صدقه

الحـرب العراقيـة مواجهـة مسـلحة بـدأت بغـزو العـراق سـنة 2003م، بقيـادة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة خـلال حكـم الرئيـس جـورج بـوش الأول.. تـم التخطيـط لهـذه الحـرب عـلى مسـتوى عالمي عـلى يـد الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وكان قـادة أمريـكا كلهـم أمـل وثقـة في نتائـج هذه الاسـتراتيجية، ولكنني كان لدي شـكوك كبيرة فيما يتعلـق بهـذه الحـرب، وصرحت مناقضـا النتائج المحتملـة والمتفائلة في مقابلـة صحفيـة مـع «الديـلي لونـج» قبـل البدايـة الفعليـة للحـرب... صـدرت هـذه المقابلـة تحـت عنـوان: (العـدوان الأمريـكي سـيؤدي إلى نتائج عكسـية)[24].

ولقـد صرحـت بهـذا القـول ليـس بناءً عـلى معرفة غريبـة غامضة، ولكـن بنـاء على شـهادة التاريـخ.. إنها حقيقـة، أنه على مـر العصور لم يحـدث أن الأهـداف المرغوبـة أمكـن الوصـول إليها من خـلال الأعمال العسـكرية، وهـذا مـا حـدث فعـلا في الحروب التـي خاضها الإسـكندر الأعظـم (324 - 356ق.م.)، وأدولـف هتلر (1945 - 1889م)، وينطبق هـذا بالمثـل عـلى جميع مسـعري الحرب في هـذا العصر.

لقـد تبـين أن الخـاسر ليـس المهـزوم فقط، لكـن المنتـصر لا يحقق إلا مـا يعـرف بنـصر (بريمـوس) وهـو ذلـك النـصر الـذي تكـون فيـه

24-Sakina Yusuf Khan, "US Aggression would be Counter-Productive," The Times of India, New Delhi, September 16, 2001, <http://timesofindia.indiatimes.com/india/US-aggression-would-be-counter-productive/articleshow/471929455.cms>, [accessed on July 20, 2015].

خسائر المنتصر مساوية أو أعظم من خسائر المهزوم. إن مصطلح نصر بريموس تعود تسميته إلى ملك ليون (272 - 318 ق.م.) الذي جنى فيه جيشه خسائر بشرية فادحة في حربه وهزيمته للرومان في «HERACLEA» سنة 280 ق.م.، و«ASCULUM» سنة 279 ق.م. خلال حرب بريموس.

يعيد التاريخ نفسه في القرن العشرين. ففي الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا العظمى أحد أكبر المشاركين. عندما بدأت الحرب كانت الأمبراطورية البريطانية مترامية الأطراف كما عبرت عنها الصحيفة الأسكتلندية كالدونيان مركوي بتصديرها «الأمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس»[25] ولكن مع نهاية الحرب العالمية الثانية تضاءلت القوى العسكرية لبريطانيا العظمى، وبسبب عجزها عن سيطرتها على تلك الأمبراطورية لم يعد لها خيار إلا أن تتنازل عن مستعمراتها بما فيها الهند التي أعلن استقلالها على يد نائب الملك البريطاني اللورد ماونتباتن في 15 أغسطس سنة 1947م.

إن أعظم مساوئ الحرب هو أن نتائجها لا يمكن التنبؤ بها، ولا يوجد في التاريخ حرب نشبت وكانت نتائجها كما كان متوقع لها.. الحرب لعبة لا يمكن التنبؤ بنتائجها ولا تجلب إلا الدمار.. الحرب كالقفز في الظلمات، بينما قضية السلام تختلف تماماً، ذلك أن التخطيط السلمي يؤدي بالضرورة إلى تحقيق النتائج المرجوة.

إن مثل الحرب كمثل نبتة ذات أشواك لا تنتج إلا الأشواك، والذي ينتظر الورود من شجرة الأشواك يعيش في جنة زائفة، بينما السلام كنبتة مثمرة تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها.

25- "The British Empire," Caledonian Mercury (15619), 15 October 1821, p. 4.

إذا أثبت نهج الحرب فعاليته في إلحاق الضرر في الأزمنة السابقة، فإن اختراع أسلحة الدمار الشامل في النصف الثاني من القرن العشرين أبطل خيار الحرب باعتباره وسيلة لتحقيق الأهداف، وصار الخيار الوحيد في عصرنا هذا أمام الأفراد والجماعات هو خيار الكفاح السلمي، أما صراع العنف فلم يعد قابلاً للتطبيق حتى لأصحاب القوى العظمى. فإذا دخلت جماعات أو أفراد حرباً في القرن الواحد والعشرين فهم يبرهنون إما على جهلهم بالواقع وحقائق العصر، أو أنهم - وبسبب اعتقاد باطل - ألقوا بأهدافهم إلى هاوية الانتحار.

بسبب التطور التقني من ناحية فإن الحرب في العصر الحديث لم تعد خياراً مقبولاً لكائن من كان، ومن ناحية أخرى فإن التطور التقني فتح باب الفرص خارج ساحة القتال التي من الممكن ان تجعل الفرد ناجحا بصورة كبيرة فقط بالسير في درب السلام.

هذا التغير التاريخي يجب أن ينير عقول الذين تورطوا في الأنشطة الإرهابية، ذلك أن التجربة أثبتت إلى يومنا هذا أن أعمالهم لم تحقق لهم أي شيء إيجابي. وقضيتهم هذه ليست استثناء. وسيكون هذا مستقبلهم أيضا.. إذا ما أصر المتطرفون المغالون على الإرهاب وسيلة ومذهباً فمصيرهم حتما إلى المزيد من الفشل والخسران.

على الإرهابيين إدراك أن تسمية السيف ورداً لن يجعل من السيف وردا حقيقةً، وبالمثل فإذا ما صوّر المتطرفون أعمالهم كونها وسيلة لتحقيق أهداف جميلة ونبيلة، فذلك ليس بكاف ليحول دون فشلهم وخسارتهم.

عليهم أن يضعوا نهاية للعنف دون أي تأخير وعليهم العودة إلى نهج السلام ومذهبه.

حرب لا تنتهي

الحـرب في حـد ذاتها عمـل عندما تبدأ فلن تنتهـي، وإذا ما انتهت الحـرب في سـاحة القتال تحل محلهـا الحرب الباردة.

هنـاك طرفـان في الحـرب، أحدهـما منتـصر والآخـر مهـزوم، ولكن هـذا لا يضـع نهايـة للحـرب لأن المنتـصر سـتتملكه مشـاعر القـوة والغـرور، وتتملكـه الرغبـة في الحصـول عـلى المزيـد مـن الانتصـارات، وهـذا النـوع من التفكير يمـد في عمرالحرب لتجلب المزيـد من الدمار.

أمـا بالنسـبة للمهـزوم فـإن سـيكولوجية الهزيمـة تجعـل الفرد غير مسـتعد لقبولهـا، وفي الوقـت نفسـه لا يرغـب في تلقي هزائـم أخرى.. إن عـدم قدرتـه عـلى الثـأر لهزيمتـه يعـد هزيمـة ثانيـة في ذاتهـا، ولهذا السـبب فـإن المهـزوم لا يقبـل الهزيمـة أبـدا، وتمتلكـه الرغبـة في الثـأر لهزيمتـه أيـا كانـت النتائج.

لكـن مـن أجـل حيـاة طيبة وسـليمة، يجـب أن يوضع حـداً لحالة الحـرب، ولكـن التاريـخ يخبرنـا أن إرادة إنهـاء الحـرب لا توجـد عنـد المنتـصر ولا عنـد المنهـزم، هـذه المهمـة يجـب أن تتـم عـلى يـد طـرف ثالـث، وبتدخـل الطـرف الثالـث سـيكون هنـاك دائمـا احتماليـة وضع نهايـة للحرب.

نجـد مثـالاً عـلى ذلـك في فـترة قرب نهايـة الحـرب العالميـة الثانية سـنة 1945م عندمـا ألقـت أمريـكا قنابلهـا الذريـة عـلى مـدن اليابـان هيروشـيما ونـكازاكي.. شـعرت اليابان بحاجـة قوية للانتقـام بالمثل إزاء هـذه الجريمـة الأعظـم شـناعة ضـد الأمـة اليابانيـة وكانـت في طريقها لتعليـم أمريكا درسـاً قاسـياً.

في تلك الفترة العصيبة من الزمن بدأ بعض الصحافيين - ذوي حكمة - حملة إعلامية في اليابان، فكتبوا مقالات قوية وأصدروا بعض الكتب لتهدئة اليابانيين، مفادها أن أمريكا ألقت قنابلها على مدن اليابان 1945م واليابان أيضا دمرت فيما سبق القاعدة البحرية الأمريكية بيرل هاربر (Pearl Harbor) سنة 1941م، وبهذا تساويا... كما أنهم استحثوا أبناء اليابان على نبذ طريق الانتقام، وأن يكافحوا بدلاً من ذلك لبناء الأمة اليابانية من جديد، استجاب اليابانيون لهذا النداء الحكيم ونبذوا رغبتهم في الانتقام، بل وفتحوا أبواب التعاون مع أمريكا، وكانت النتيجة بادية للعيان، حين ظهرت اليابان للعالم كأعظم الدول تطوراً ورقياً برغم الدمار الذي لحق بها في تلك الحرب العالمية الثانية.

الوضع نفسه لا زال قائماً بين الباكستان والهند، تأسست الباكستان سنة 1947م، ومنذ ذلك الزمن بدأت العداوة بين البلدين ولم تخمد إلى يومنا هذا ... في سنة 1971م دعم وساند جيش الهند حركة الاستقلال لبنغلاديش تحت قيادة الشيخ مجيب الرحمن (1920-1975م)، و نتيجة لذلك تجزأت باكستان. و كتب في هذا الصدد العديد من الكتب أشهرها (انفصال بعد انفصال وتقطيع أوصال الباكستان). زاد هذا الحدث من غضب الباكستانيين في فترة الانحطاط تلك، وكان المطلوب هو أن يتقدم بعض المفكرين ذوي الحكمة ويرتقوا إلى مستوى الحدث ويكافحوا بجهدهم لتهدئة مواطني باكستان، وكان عليهم إقناع الباكستانيين أنهم كانوا أداةً لتقسيم الهند سنة 1947م، واليوم ساعدت الهند في تقسيم باكستان سنة 1971م، و بهذا يكونان قد تساويا، وأنه قد آن الأوان لنسيان الماضي ولبدء مرحلة بناء الأمة الباكستانية وتوجيهها إلى وجهة إيجابية تعود بالنفع والفائدة.

لم يكن المفكرون الباكستانيون في مستوى الحدث، ونتيجة لذلك زادت مشاعر الكراهية عند الباكستانيين، ولهذا السبب انخرطت باكستان في العديد من الأعمال والأنشطة ذات الطابع السلبي ضد الهند، ونتيجة لانشغال باكستان بهذه الأنشطة العسكرية ضد الهند تحولت باكستان إلى دولة فاشلة.

تحدث الحروب بين الأمم عادة، وفي تلك الفترة من الزمن ليس بمقدور الطرفين المتحاربين تحويل التفكير السلبي إلى فكر إيجابي، وليس بوسعهم نبذ طريق العنف وتبني طريق السلام. والمطلوب في هذه الحال، هو أن يعمل طرف ثالث محايد على تهدئة نار العداوة والكراهية، ومحاولة خلق تفكير إيجابي عند الأطراف المتنازعة. إذا وجد طرف ثالث قادر على أن يقوم بهذا الدور، يصير ممكنا توجيه الأطراف المتنازعة إلى طريق السلام. إذا لم تحدث مثل هذه المبادرة ستستمر أعمال العنف بلا توقف ودائرة العنف لن تنتهي حتى يدمر الطرفان تدميراً تاماً وهي ليست الكيفية المثالية لإنهاء العدوان.

مشكلة إدارة الأزمات

واجهت كل من الصين ومصر الأزمة السياسية نفسها، ولكن ردود أفعالهم والنتائج التي ترتبت عليها كانت مختلفة. ففي حين نجحت الصين في إدارة الأزمة أخفقت مصر ودفعت نتيجة لإخفاقها ثمناً باهظاً.

تعد هونج كونج جزيرة على سواحل الصين استأجرتها بريطانيا من الصين لمدة 99 سنة وفقا لبنود المعاهدة التي أبرمت سنة 1898م. أرادت الصين استعادة هونج كونج و لكنها لم تتخذ أية إجراءات

أحاديـة الجانـب، بل خاضت مناقشـات سـلام مع بريطانيـا، وبعد نهاية ال 99 عـام ووفقـاً لبنـود المعاهـدة المبرمة أعادت بريطانيـا هونج كونج إلى سـيادة الصـين في 1 يوليـو 1997م.. هكـذا انتهـت الأزمة بسـلام.

تختلـف قضيـة قنـاة السـويس كل الاختلاف.. أنشـئت شركـة قناة السـويس سـنة 1858م، لغـرض بنـاء القنـاة وتشـغيلها وقـد تـم إبـرام عقـد إيجـار الأرض لمدة 99 سـنة بداية من فتح و تشـغيل القناة سـنة 1869م، بعـد انقـلاب 1952م، عـلى الملـك فـاروق تزعـم جـمال عبـد النـاصر رئاسـة مـصر مـن سـنة 1956م إلى سـنة 1970م، ولم يمض زمن حتـى أعلـن عبـد الناصر تأميم القناة 26 يوليـو 1956م، على الرغم من صلاحيـة عقـد الإيجـار لمـدة 12 عامـاً قادمـة. فجّـر هذا الحـدث أزمة السـويس، وردا عـلى ذلـك تحالفـت قـوات بريطانيا وفرنسـا وإسرائيل عـلى غـزو مـصر وهزمـت القـوات العسـكرية المصريـة، ثـم تـلا ذلـك حـرب الأيام السـتة سـنة 1967م، شـنت خلالهـا إسرائيل هجومـاً جوياً هائـلاً دمـر القـدرات العسـكرية الجويـة لجمهورية مـصر العربية.

مـع التفـوق الجـوي اسـتطاعت إسرائيـل أن تسـيطر عـلى شـبه جزيـرة سـيناء في ثلاثة أيـام، ثم احتلت مدينة القـدس القديمة وهضبة الجـولان الاسـتراتيجية عـلى الحدود السـورية.

واجهـت الصـين ومـصر مشـكلة تأجـير أراضي إلى دولـة أخـرى ذات سـيادة، ونجحـت الصـين في إدارة الأزمـة بحكمـة، بينـما لم تفلـح مـصر. ونتيجـة لذلـك الإخفـاق اسـتولت إسرائيـل عـلى مناطـق فلسـطينية شاسـعة لم تكـن تحت سـيطرتها قبـل التأميم. اختارت مصر اسـتراتيجية المواجهة والعنف وفشـلت في مسـعاها بينما اختارت الصين اسـتراتيجية السـلام فحققـت النصر المنشـود.

الحياة مليئة بالأزمات سواء على مستوى الأفراد أو الأمم، ومن يفقه فن إدارة الأزمات فمصيره إلى النجاح ومن جهل هذا الفن فمصيره إلى الفشل والخسران. نتائج الإدارة الناجحة هو السلام، والفشل في إدارة الأزمات يقود حتما إلى الحروب والعنف.

كل الحروب السابقة تعبير ومثال للفشل في إدارة الأزمات، وفي المقابل كل أوضاع السلام القائمة ماهي إلا نتيجة لنجاح إدارة الأزمات بين الأطراف المتنازعة. يتطلب من كل المعنيين تعلم فن إدارة الأزمات لتحقيق العيش بسلام. وفي هذا الصدد لا يوجد بديل ناجح سواء على مستوى الأفراد أو الأمم... إدارة الأزمات تتطلب الصبر والتخطيط بحكمة، ومن يمتلك هذه الخصائص سيكون قادراً على إدارة الأزمة مهما تعاظمت أخطارها.. عندما يتعامل الفرد مع الأزمة سيدفع ثمن خسارة بعض الحقوق خلال تلك العملية، ولكنها خسارة وقتية وذات طابع أقل أهمية.. إن الإستقرار والعودة إلى الحياة الطبيعية الناتج عن الإدارة الناجحة للأزمة سيجعل من الممكن استعادة ما خسره بل وربما أكثر مما كان في حوزته مسبقاً.

تبرهن الأمة التي تمارس العنف بكل وضوح على عدم قدرتها على إدارة الأزمات. الأمم - في أحوال مماثلة - في حاجة إلى مراجعة أولوياتها، ثم الكفاح وبذل الجهد لاستحداث الوسائل اللازمة لإدارة الأزمة ومعالجتها، وحال ما استمرت في أعمال العنف فإنها ستزيد من حجم الخسارة ليس إلا.

الانخراط في العنف كالدخول إلى مستنقع، والأفضل هو الخروج منه في أسرع وقت.. ومثال على ذلك حرب فيتنام (1955 - 1975م) التي تورطت فيها الولايات المتحده الأمريكية لمدة عشرين عاماً، وفي

نهايتها أدركت أن أعمالها لا تحقق النتائج المرجوة، فقررت من طرف واحد الخروج من ساحة المعركة. إنّ قرار الولايات المتحدة الأمريكية تطبيق جيد للمثل المعروف (أن تصل متأخرا أفضل من ألا تصل أبدا).

يقود الفشل في إدارة الأزمات إلى العنف والحرب، وبالمقابل فالنجاح يؤدي لامحالة إلى السلام. تتطلب إدارة الأزمات الصبر، ومن يتحلى بالصبر في أوقات الأزمات سيعمل عقله بطريقة طبيعية وسريعاً يصل إلى حل وسلام، وعلى النقيض من ذلك، إذا فقد الفرد رباطة جأشه فلن يعمل عقله وتفكيره بالكفاءة المطلوبه مما سيقوده ويدفعه إلى طريق المواجهة.

الحفاظ على الوضع الراهن

المبدأ الأساس والوحيد الذي يمكن أن يبنى عليه سلام في المجتمع هو ضرورة الحفاظ على الوضع الراهن أوالقائم، وإذا ما حاول الإنسان تغيير الوضع القائم فإنه وبكل تأكيد سيطلق العنان لأعمال العنف، وعلى العكس من ذلك، فإن القبول بالوضع الراهن سيجلب السلام إلى المجتمع.

تعتبر الكعبة المشرفة أقدس مكان لدى المسلمين، بنى النبي إبراهيم عليه السلام الكعبة في مكة المكرمة في الألفية الثانية قبل الميلاد، بقرون عديدة قبل بعثة نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام. شكل الكعبة اليوم مكعب، شيد على قاعدة مربعة الشكل، ولكن بناء الكعبة في البداية على عهد النبي ابراهيم كان بناءً مكعباً شيد على قاعدة مستطيلة الشكل، واستمرت على هذا النحو إلى أن أعاد أهل مكة بناء الكعبة عقب الطوفان الذي ألحق أضراراً جسيمة فجعلوا لها قاعدة مربعة الشكل.

إن رسالة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام كانت إحياء لسنة النبي إبراهيم عليه السلام، ولكنه لم يحاول إعادة بناء الكعبة لتعود إلى الهيئة التي كانت عليها على عهد إبراهيم عليه السلام، بل تركها على هيئتها المتقطعة، والسبب في ذلك كما ورد في صحيح البخاري خشية النبي أن يؤدي ذلك إلى خلاف ونزاع مع أهل مكة، الأمر الذي قد يعيق دعوة النبي المسالمة إلى دين الإسلام[26]. لهذا السبب ترك النبي الكعبة كما وجدها ولم يبذل أية جهود في محاولة إعادة بنائها.

سنة النبي ومنهجه هذا، ترك لنا مبدأ غاية في الأهمية ألا وهو ألاّ نحاول أبدا تغيير الوضع الراهن التاريخي، لأن محاولة تغيير الوضع المتعارف عليه لعهود طويلة الأمد سيقود حتماً إلى نتائج وخيمة قد تصل في ذروتها إلى انتشار أعمال العنف، ونجد في تاريخ المسلمين أمثلة عديدة تبرهن على حقيقه وجود هذا المبدأ.

خضعت فلسطين قبل تقسيمها لنظام الانتداب الدولي الذي جاء في شكل لجنة قانونية مارست مهامها من العام 1923م حتى العام 1948م. شكل الانتداب إدارة بريطانية للأراضي الفلسطينية التي كانت في السابق جزءاً من الأمبراطورية العثمانية. أكدت سلطة الانتداب على التزام بريطانيا بوعد بلفور1917م الذي نص على إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وفي العام 1947م قدمت الأمم المتحدة خطة لتقسيم فلسطين وأوصت فيها بقيام دولتين مستقلتين لكل من العرب واليهود ونظام دولي خاص لإدارة مدينة القدس.

26- الحديث: (عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم..)، صحيح البخاري، رقم 1509، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها.

رفض القادة العرب مثل حسن البنا وسيد قطب وجمال عبد الناصر مقترح التقسيم وعملوا جهدهم لإعادة توحيد فلسطين تحت حكم العرب، ولكنهم أخفقوا في ذلك الجهاد الفلسطيني العربي، وعلى الرغم من بذل كافة التضحيات، أدى ذلك التوجه إلى نتائج عكسية، وهو الأمر الذي فوت العديد من فرص البناء، وجلب المزيد من الخسائر.

الوضع الراهن لا يمكن أن يكون وليد اللحظة، ولكنه يظهر نتيجة تلاقي عوامل متعددة خلال فترة زمنية طويلة. والذين يرغبون في تغيير الوضع الراهن ليس بمقدورهم إعادة انتاج العوامل الملائمة لإحداث التغيير، فتلك العوامل المطلوبة تظهر إلى الوجود من خلال عملية تاريخية طويلة الأمد، ولا يمكن أن تظهر إلى الوجود فقط بممارسة الأنشطة السياسية وأعمال الشغب.

السلام حالة إيجابية لا تظهر للوجود إلا بالتخطيط الإيجابي، وذلك يتطلب جهوداً عظيمة ومتواصلة، تقوم على التفكير العميق والحكمة.

هذه حقيقة تاريخية، وقبول الحقائق التاريخية من هذا المنطق سيساعد على قبول الوضع الراهن، وعدم قبول هذه الحقيقة سيقود إلى الرغبة في التغيير، الأمر الذي يستحيل حدوثه.

إن إحلال السلام وضع إيجابي لا يمكن أن يسود بدون تخطيط إيجابي مسبق، والحرب من جهة أخرى حالة سلبية لا يمكن أن تنشب إلا في غياب التخطيط الإيجابي.

الذين يرغبون في صنع السلام عليهم إدراك هذا المعنى، أو أن جهودهم ستذهب هباء منثوراً.

إن محاولـه تغيـير الوضـع الراهن ليس حرباً ضـد الآخرين من بني الإنسـان، ولكنـه حـرب في مواجهـة سـنن التاريـخ وقوانينـه، ولا يوجد فـرد مـا أو جماعـة معينـة تمتلك القـوة الكافية لتحـارب التاريـخ... إن قبـول الوضـع الراهـن هـو قبـول للتاريخ، ومحاولـة التغيير هـي بمثابة حـرب عـلى التاريـخ ... في مثـل هـذه الظروف ليـس للإنسـان إلا خيار واحـد، ألا وهـو ضرورة القبـول بالحقائق التاريخية، والتخطيط بسـلام للعمـل على اسـتغلال الفـرص المتاحة أفضل اسـتغلال.

دروس من التاريخ

قـوة السـلام وفقاً لسـنة الخلـق أعظم من قـوة الحـرب، ولقد ثبتت مصداقيـه هـذا المبـدأ عـبر التاريـخ، وعلى الأخص خـلال الحـرب العالمية الثانية التى خلفت لنا دروسـاً في غاية الأهمية. شـاركت اليابان في الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م) بطموحات وتطلعات متماثلة، إذ كانت رغبـة اليابـان أن تصـير الدولـة الأولى في آسـيا، بينـما تطلعـت ألمانيـا أن تكـون الدولـة الأولى في أوروبـا... دامـت الحرب العالمية الثانية 6 سـنوات أرغمـت فيهـا الدولتان على تكبد خسـائر فادحـة في الأرواح والممتلكات، ومـع قـرب نهايـة الحرب تعرضـت كلتاهما لدمار واسـع كبير.

برز في نهاية الحرب قادة في اليابان وألمانيا، استطاعوا إنقاذ مواطنيهم مـن مغبـة الوقـوع في بيئـة التفكـير السـلبي. وخاطـب أمبراطـور اليابان شـعبه في 12 أغسـطس 1945م متحدثـاً عـن هزيمـة اليابـان. إنـه وفقا لما يمليـه الزمـان والقدر عقدنا العزم على أن نمهد الطريق إلى السـلام الأعظم لأجيالنـا القادمـة بتحمل مالا يمكن تحملـه ومعاناة لا يمكـن معاناتها.[27]

27- John Toland, The Rising Sun: The Decline and Fall of the Japanese Empire, 1936-1945, New York, Random House, 1970, p. 817.

كان هـدف رسـالة أمبراطـور اليابـان بناء مسـتقبل اليابـان، وتحديد وجهـة العمـل ومجالاتـه، ولم يتضمن مخطـط اليابان بعـد نهاية الحرب توجيـه الأمة إلى الاسـتعداد للانتقام.

هـذا التخطيـط السـلمي نجـح نجاحـاً باهـراً، ذلـك أن اليابـان بعد مـرور ثلاثـين سـنة، تصـدرت قائمة الأمم في آسـيا وصـارت الدولـة الأولى. سـلك تاريـخ ألمانيـا الحديـث وجهـة مماثلـة، ذلـك أن المستشـار الألماني الأول (1963 - 1949م) كونـراد هيرمـان جوزف ادناور (1976 - 1967م) قـاد ألمانيـا من دمـار الحـرب إلى دولة تنعـم بالرخاء والازدهـار. وكرجل دولـة ضليـع عـلى رأس قائمـة القيـادات الفكريـة الألمانية خطـط ادناور لمسـتقبل ألمانيـا في إطـار سـلمي نقيض لسـلفه المعيب السـمعة أدولف هتلـر الـذي قـاد ألمانيـا بعدوانيـة إلى ويلات الحـرب والهزيمـة والدمار.

انتشـل منهـج ادنـاور وأسـلوبه ألمانيـا رويـداً مـن الدمـار وجعـل منهـا الدولـة الأولى في أوروبـا. هـذه التجربـة في القـرن العشرين يجب أن تفتـح أعـين أولئك الذيـن ينتهجون العنـف وتسـتثيرعقولهم، أولئك المؤمنـون بأنهـم سـيتمكنون مـن تحقيق أهدافهـم بالحـرب والقتال.

التاريـخ الإسـلامي أيضـا مـلىء بخـبرات وتجـارب مماثلـة، فقـد هاجمـت جيـوش التتـار والمغـول في القرن الثالث عشر الميـلادي الخلافة العباسـية محطمـة كل شيء مـرت عليـه مـن سـمرقند إلى حلـب.

خـاض المسـلمون عـدة معـارك في نهايتها هزمت جيوش المسـلمين وتـم إخضـاع الخلافة إلى حكم المغول وسـيطرتهم. ذهبـت كل الجهود القتاليـة فى مهـب الرياح وتحطمـت معنويات المسـلمين وتفشى بينهم معنـى «لا تصـدق إذا قال أحدهم أن المغـول هزموا.»[28]

28 - Izzuddin ibn al-Athir, Al-Kamil fi al-Tarikh, Beirut, Dar Sadir, 1982, Vol. 12, p. 384.

حـدث تغيـير بعـد أن أجـبر المسـلمون عـلى تـرك العنـف والقتـال وتحولهـم إلى الأعـمال ذات الطابـع السـلمى، ذكـر المسـتشرق البريطانى T.W Arnold 1864-1930م في كتابـه «الدعوة الى الإسـلام» أن العملية السـلمية ترتـب عليهـا دخـول السـواد الأعظـم مـن المغـول إلى ديـن الإسـلام.[29] وهكذا فإن التحديات التى لم تقهر بالسـيف قهرت بالسـلام..

تعقيبـا عـلى هـذه الحادثـة قـال المفكـر اللبنـاني الأمريـكي فيليـب حتـى (1886 -1978) انتـصر دين المسـلمين حيث أخفقت سـيوفهم.[30]

هـذا التاريـخ الإسـلامي يبعـث برسـالة في غايـة الأهميـة مفادهـا أن المسـلمين فشـلوا في تحقيـق أهدافهـم عـن طريق العنـف، وأنه قد آن الآوان مـن جديـد ليهجـروا كل أنـواع العنـف وأن يعملـوا جهدهم لتحقيـق أهدافهم بالوسـائل السـلمية.

تقـوم الحـرب عـلى الاسـتخدام العـدواني للسـلاح ولا تكـون إلا مصـدراً للدمـار، ولا يمكـن لهـا أن تحقـق شـيئا بنّـاء وإيجابيـاً، وعـلى العكـس مـن ذلك فإن السـلام القائم عـلى التعليـم والتخطيط الإيجابي سـيقود حتـماً إلى التقـدم والتطـور، والتاريـخ البـشري بأكملـه شـاهد عـلى صـدق هـذا المعنـى.

تمـارس الحـروب تحت تأثير التفكير السـلبي، وتكـون نتائجها دائما سـلبية، بينـما التخطيـط السـلمي يمارس وينضبـط تحت تأثـير التفكير الإيجابي ولهذا السـبب ثبت - دائماً وبدون أدني شـك - نجاح الوسـائل السـلمية ومنهج السلام.

29- Thomas Walker Arnold, The Preaching of Islam, London, Constable and Co. Ltd., 1913, Chapter: The Spread of Islam among the Mongols and Tartars, pp. 168-192.

30 - Phillip K. Hitti, History of the Arabs, London, Palgrave MacMillan, 2002, p. 488.

إن الدراسة الموضوعية للتاريخ تقدم لنا درساً ثميناً مفاده أنه على مر العصور لم يتمكن كائن من كان من تحقيق نتائج إيجابية من خلال الحرب، وعلى مر الأزمنة والعصور لم يتمكن أحد من تحقيق نتائج سلبية بتبني مبدأ السلام ومنهجه.

إن التاريخ سجل لخبرات البشر وتجاربهم إيجابية كانت أو سلبية، وهو يتضمن رسالة أنه يجب ألا نعيد تكرار التجارب السلبية، بل يجب أن نعيد فقط تلك التجارب التي أدت إلى نتائج إيجابية، كما أن تاريخ البشرية مدون في طيات الكتب المتوفرة حول العالم، وقبل الهرولة إلى ساحة القتال فإنه أجدر بالمقاتلين أن يرتادوا المكاتب بغية الهداية، وبعد الدراسة المتعمقة لسجلات التاريخ التي توضح الجوانب الإيجابية والسلبية على امتداد التاريخ، يمكن لأولئك الناشطين التخطيط لأعمالهم المستقبلية.

إذا تأملت الحدائق الغناء والجبال والبحار وتلألؤ النجوم سترى السلام والسكينة تعم أرجاء الكون، إنها فقط حياة البشر موبوءة بالعنف والقتال، وكأن وجود الإنسان يتناقض مع سائر الموجودات في هذا الكون. لو أمكن لأولئك المنخرطين في الأعمال العسكرية رؤية هذا التناقض لأمتلأوا خجلاً وتركوا سبيل العنف وتبنوا ثقافة السلام وسبله.

الفصل الخامس:

الحاجة إلى أيديولوجية في مواجهة أيديولوجية العنف

قضية المسلمين المعاصرين

يقال إن المسلمين في كافة أنحاء الأرض متورطون في أعمال العنف.. البعض متورط في أعمال العنف «السلبي» والبعض الآخر متورط في أعمال العنف «الفاعل... إن مجرد التفكير بطريقة متطرفة يمكن أن نصفه بالعنف السلبي أو الخامل، بينما ثقافة حمل السلاح يمكن أن نصفها بالعنف الفاعل. هذه الظاهرة لها علاقة بالمسلمين ولكن ليس لها علاقة بتعاليم الإسلام.

الحقيقة وفقاً لمفهوم القرآن الكريم هي أن المسلمين هم الأشهاد على العالمين، قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، (سورة البقرة 143)، وهي المهمة نفسها التي وُكّل بها اليهود قبل الإسلام كما ورد في نص الإنجيل {ولذلك فأنتم شهدائي قال الرب}[31].. وردت هذة الحقيقة في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾، (سورة آل عمران 187).

كان اليهود أهل الكتاب وحملة الرسالة، ولكنهم في فترة متأخرة من تاريخهم نسوا بالكليةً وتخلصوا من مفهوم كونهم الأشهاد. استبدل اليهود مفهوم «الأشهاد» بمفهوم «الخيرية» أو تزكية الذات، وحذا المسلمون اليوم حذوهم، إذ إن تفكيرهم يقوم على ذات المصطلح، مصطلح الخيرية وتزكية الذات.

إن الفكر الإسلامي الذي ظهر مؤخراً يقوم على معنى الخيرية والذي يتلخص في معنى «نحن خلفاء الله في الأرض». لهذا الفكر

31- The Bible, Isaiah 43: 12.

نظر الأدب الإسلامي بكل قوة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وأعيد إحياء هذا المفهوم بصورة أكبر في العصر الحديث على يد اثنين من المفكرين الإسلاميين: المصري سيد قطب (1906 - 1966م) في العالم العربي، والباكستاني الأصل سيد أبو الأعلى المودودي (1903 - 1979م) عند غير العرب.

هذا الفكر الذي شاع وانتشر في القرن الحالي قاد في نهاية الأمر إلى أعمال العنف تحت مسمّى الجهاد، حين صاغ وتبنى المسلمون المعاصرون المحاربون مفهوماً خاصاً بهم لمعنى وغاية الجهاد ألا وهو إقامة حكم الله في الأرض، وأختاروا لقتالهم العسكري الدينى مبرراً بأن سمّوه بمسمّى الجهاد.

الجهاد لفظاً هو بذل الوسع، والمعنى الحقيقي لهذه الكلمة هو الكفاح السلمي لتبليغ رسالة الله إلى العالمين. صاغ المسلمون المعاصرون المحاربون مفهوماً خاصاً بهم لمعنى الجهاد وغايتة ألا وهو إقامة حكم الله في الأرض، وأختاروا لقتالهم الديني مبرراً بأن سموه بمسمى الجهاد، ولهذا السبب وجد قبولاً عند الكثير من الناس. لقد صور أصحاب هذا الفكر ومناصروه أعمالهم بكونها قتالاً مبرراً وله أصل، وللقيام بهذه المهمة أضفوا بطريقتهم الخاصة صفة الشرعية على كل أنواع العنف إلى درجة أنهم أحلوا القيام بالعمليات الانتحارية.

والسؤال المطروح اليوم هو كيف يمكن مواجهة هذا التشدد؟ الجواب يتطلب وجود أيديولوجية مضادة ومعاكسة، فالجهاديون يزعمون أن قتالهم عمل مشروع مستدلين بتأويل خاطئ للنص الديني، وعلينا اليوم أن ننزع عنهم مشروعية أعمالهم باستبدال التأويل الخاطئ للنص لديهم بالتفسير الصحيح، هذه هي الاستراتيجية

الوحيدة التي يمكن أن تلقى نجاحاً. مادام الإنسان حيواناً مفكراً يقبل الأشياء عند مخاطبة عقله بطريقة مناسبة والجهاديون ليسوا استثناء.

أود أن أسرد قصة تدور حول هذا المعنى، عند زيارتي لفلسطين قابلت بعض الأطفال العرب ينشدون «هلم نقاتل هلم نقاتل هلم نقاتل، فإن القتال سبيل الرشاد» فقلت: «إن الأجدر أن ننشد «هلم نسالم هلم نسالم فإن السلام سبيل الرشاد.»

أعجب الأطفال بالمقترح، وأبدوا موافقتهم ثم استطردوا قائلين: نحن محاطون بالأعداء وإذا إخترنا السلام فما الذي سيحدث؟ أوضحت قائلا: لقد اخطأتم باعتباركم الآخرين أعداء، فهم ليسوا أعداءكم، بل هم المدعوون بالنسبة لكم، والدين أوجب أن تصلهم رسالة الله.

وفقا لقول الله تعالى : ﴿ **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ﴾، (سورة البروج 3)، فالمسلمون «شاهد» وغيرهم من بني الإنسان «مشهود». واجبنا هو تبليغ رسالة الله للعالمين، ثم أشرت لحقيقة أن وسائل العنف لم تحقق لهم أية نتائج، ولكنهم إذا انشغلوا بعمل الدعوة السلمية، فإن الله وعدنا بكافة أنواع النصر والعون ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾، (سورة الحج 40).

عبّر الأطفال العرب عن فرحتهم بما قلت، وقدّم أحدهم غصن زيتون من شجيرة بالجوار رمزاً للسلام. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الطبيعة البشرية فإنه يمكن القول إن هذه التجربة قابله للتطبيق على كل المسلمين في كافة أنحاء العالم.

الحاجة إلى قنبلة أدبية «فكرية»

ولد ميلوفان دجيلاس[32] في يوغسلافيا وتأثر في مرحلة الشباب بالشيوعية، وأصبح عضواً ناشطاً في الحزب الشيوعي، ثم نائباً للرئيس اليوغسلافي، ولكنه مع رؤية النتائج العملية للشيوعية تحول إلى أكبر النقّاد للنظام الشيوعي.

نشر كتاباً له سنة 1957م بعنوان (الطبقة الجديدة: دراسة تحليلية للنظام الشيوعي) برهن فيه على أن الشيوعية في الاتحاد السوفياتي وشرق أوروبا لا تقوم على المساواة، وإنما هي نظام أنشأ طبقة جديدة من البيروقراطيين تتمتع بمزايا ومنافع مادية لمجرد انتمائهم ولمكانتهم الحزبية. نجح هذا الكتاب نجاحاً باهراً وترجم إلى ما يقارب من أربعين لغة. وكُتبت استعراضات لهذا الكتاب في كافة أرجاء العالم ونشرته مجلة Reader›s Digest تحت عنوان (الكتاب الذي يهز العالم الشيوعي).[33]

لقد عارضت الولايات المتحدة الأمريكية روسيا الشيوعية بكل قوّة، ولكنها بدلاً من أن تلقي بقنابلها الذرية فوق روسيا إخترعت حملة أدبية فكرية في مواجهة النظام الشيوعي. ثم طباعة ونشرعدد غير يسير من الكتب بمختلف اللغات تنتقد في مضمونها عيوب أو أخطاء الفلسفة الشيوعية. قامت هذه الحملة على تخطيط مدروس أدى في نهايته إلى إبراز تحد كبير للشيوعية على المستوى الأيدولوجي.

32- MILOWAN DJILAS (1911-1995).

33- Eugene Lyons, "Milovan Djilas and the Book That Is Shaking the Communist World," Reader's Digest, October 1957.

نجحت هذه الاستراتيجية نجاحاً باهراً، وفي سنة 1991 انهار الاتحاد السوفياتي بعد ستين سنة من قيامه. هذا هو السبيل الصحيح لمواجهة الحركات الإسلامية الإرهابية المعاصرة. إن استعمال القنابل الكيماوية أو الذرية ليس الطريق الأمثل لاستئصال جذور الإرهاب، فالقضاء على الإرهاب يتطلب قنبلة أدبية فكرية تساعد الناس على تجنب الإرهاب ونبذه، وتستحث الإرهابيين على اتباع سبل السلام. تتطلب مواجهة الإرهاب في هذا العصر طباعة كتاب قوي تحت عنوان (الكتاب الذي يهز عالم الإرهاب).

اعتقد البعض أنّ صدام حسين في وقت من الأوقات راعي الإرهاب الأول، وأُدين بتهمة القتل وأُعدم في سنة 2006م وبعد صدام حسين اعتبر أسامه بن لادن المسوؤل الأول ورأس حربة الإرهاب، ولكنه كذلك قتل في سنة 2011م في مخبئه بالباكستان. كما اعتبر أبو بكر البغدادي الإرهابي الأكثر رعباً فوجب القضاء عليه، ووفقاً للأخبار الإعلامية فإنه قُتل في هجوم جوي مباغت.

على الرغم من قتل هؤلاء القادة، فإن الإرهاب باسم الإسلام لازال مزدهراً، وهذا يظهر أنه يجب علينا أن نغير طريقتنا في مواجهة الإرهاب. علينا أن نتبنى استراتيجية غير استراتيجية الرصاص والقنابل.

وفقاً للأخبار الإعلامية اعترف الرئيس باراك أوباما بتأريخ 10 يونيو 2015م، بفشل استراتيجية العنف في مواجهة تنظيم دولة العراق والشام، على الرغم من دعم القوات الأمريكية بعدد 450 مستشاراً عسكرياً إضافة إلى 3500 مستشار بالعراق. [34]

34- "Battling Islamic State," The Hindu, June 12, 2015, p. 10.

بالنظر إلى التجارب السابقة، علينا الآن أن نسلك طريقاً معاكساً ونغير من طريقة تفكيرنا إذا أردنا أن نضع نهاية لشر الإرهاب. من المهم أن نأخذ العبر من التجارب والخبرات التاريخية، ولذلك يجب أن نستبدل القصف العسكري بالقصف الأدبي الفكري لأنها الطريقة الوحيدة والأمثل لتحقيق النجاح في هذا المجال.

يقوم الإرهاب المعاصر باسم الإسلام على التأويل الخاطئ للنص الديني، ومثال هذا التأويل ما ورد في نص الآية ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، (سورة يوسف 40)، في هذه الآية استعمل لفظ الحكم دلالة علَى الحكم الكوني (القدري)، ولكن المفكرين المسلمين المتطرفين قالوا بالحكم السياسي، وإضافة إلى ذلك قيل إنه لكون المسلمين خلفاء الله في الأرض فإنه وجب عليهم إقامة الحكم الإلهي في الأرض، هذا الافتراض خاطئ لأنه تأويل للآية القرآنية خارج سياق النص.

وآية أخرى نجد فيها لفظ «اعدلوا» وهى قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة 8)، الآية تستحث المؤمن على ممارسة العدل في حياته، ولكن التأويل الخاطئ للآية قال بالفعل أو بالمعنى المتعدي بدلا من المعنى اللازم كما ورد في السياق القرآني... الفعل في الآية السابقة لا يتطلب وجود مفعول به ليكتمل المعنى، والتأويل الخاطئ استحدث مفعولاً به ألا وهو العالم بأجمعه. الفعل في الآية لا يتطلب مفعولاً به، ولكن الخطأ في التأويل جعل لها مفعولاً به (object of active) ألا وهو العالم المعاصر، وهكذا صار معنى الآية أن العدل غاية وجب أن تفرض

عـلى الآخريـن بالقوة. وبسـبب هـذا التأويل الخاطئ صـار للعدل بعد سـياسي عـلى الرغـم مـن أن هـذا المعنـى لا يمكـن أن تجـده في النـص القـرآني السـابق الذكر.

إن أي تفسـير للنـص الدينـي مـن هـذا النـوع هـو تفسـير باطـل، ويجـب أن ينـشر على أنه تفسـير باطـل حتى يعلم النـاس أن الجهادية المعـاصرة لا أصـل لهـا في الإسـلام، وحتـى يـترك المتطرفـون هـذه الأيدولوجيـة ويعلمـوا أن أفعالهـم نقيـض للإسـلام وشرعتـه ومنهاجـه. تقـوم ظاهـرة الإرهـاب عـلى التأويـل الخاطـئ للنـص الدينـي ويمكـن اسـتئصالها فقـط بنـشر التفسـير الصحيـح للنـص الدينـي.

عـبر رئيـس وزراء بريطانيـا ديفيـد كاميرون بتاريـخ يونيو 2015 في إحـدى خطبـه عـن قلقه من سـفر بعـض الشـباب إلى العراق وسـوريا منضمـين إلى تنظيـم الدولـة الإسـلامية فقال:«يجـب علينـا أن نطفـئ بريقـاً ونبطـل سـحر قضية وأهـداف المتطرفـين وخاصة تنظيـم الدولة الإسـلامية كونهـا ليسـت عمـلا رائدا وهـي قسـوة وشرٌ بغيض.»[35]

إنها حقيقة أن المتطرفين المسـلمين المعاصرين نتاج لسـحر المفهوم «الخـاص» لمعنـى الخلافـة، والحـل الصحيـح هـو إبطـال سـحر هـذه الأيدولوجيـة وبريقهـا التـي نمـت وتطـورت على يـد المتطرفـين بتأويل خاطـئ للنصـوص الدينيـة. وكذلـك إبطـال سـحر هـذه الأيدولوجيـة أوالمفهـوم القائـم عـلى التأويـل الخاطـىء للنـص القـرآني بتجريده من مسـمى الإسلام.

35- Tim Ross, "David Cameron tells teenage jihadists they are 'cannon fodder'", The Telegraph, July 19, 2015, <http://www.telegraph.co.uk/ news/worldnews/ islamic-state/11748953/David-Cameron-tells-teenagejihadists-they-are-cannon-fodder.html>, [accessed on July 21, 2015].

إن أحد أهداف هذا الكتاب هو تقديم الأدلة الصحيحة لنبين للناس أن التأويل السياسي للإسلام باطل وليس له أصل في الإسلام.

يجب التسليم بأن المفهوم المعاصر لمعنى الخلافة يقوم على تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً (التفسير السياسي للإسلام).

كانت الأمم المتحدة على صواب باختيارها للقول الشائع: (إن الحرب تبدأ وتنطلق من عقول الرجال... وفي عقول الرجال يجب أن تشيد دفاعات السلام).[36]

إذا أردنا أن نستأصل الإرهاب فعلينا أن نعيد بناء عقول المتطرفين وهندستها على مسار وخطى السلام، ولا يمكن أن تنجح أية استراتيجية أخرى في تحقيق هذا الهدف.

تجنيد الشباب للتطرف

الجهادية الإسلامية المعاصرة ليس لها أصل في القرآن ولا في السنّة وما هي إلا نتاج لإعلام المسلمين، كان ولا يزال إعلام المسلمين -عن غير قصد منذ بدايته الى يومنا هذا- وسيلة وسبيلاً للغة الاحتجاج والمعارضة، هذه الطبيعة لإعلام المسلمين كونت عقلية المسلمين المعاصرين. فالتطرف والجهادية والعمليات الانتحارية ما هي إلا نتيجة لهذا الإعلام.

انتشر الإعلام المطبوع في العالم الإسلامي خلال القرن الثامن عشر، وكان أول من قدم الصحف المطبوعة في مصر هو نابليون بونابرت[37]، عقب اجتياح مصر سنة 1798م. أي أن الإعلام المطبوع ظهر في العالم

36- UNESCO, <http://www.unesco.org/new/en/unesco/about-us/who-weare/history/constitution/>, [accessed on July 19, 2015].

37- Napoleon Bonaparte (1821- 1769) .

العـربي عـلى يد القـوى الاسـتعمارية، ولقد تزامـن ظهور العلـم في العالم الإسـلامي مع زمن شـهد فيه المسـلمون اجتياح الاستعمار لبلاد المسلمين على نطاق واسـع.

نقلـت أخبارالصحـف اليوميـة زحـف القـوى الاسـتعمارية عـلى العـالم الإسـلامي، فعلى سـبيل المثال حطم الأسـطول الروسي سـنة 1771 الأسـطول العثـماني في البحـر الأبيـض المتوسـط خـلال الحـرب التركيـة - الروسـية (1768 - 74م)، وقتـل تيبـو Tipo سـلطان مايسـورو في الهنـد وهـو يقاتـل الجيـش البريطـاني سـنة 1799م، وهزمـت هزيمـة سـاحقة سـنة 1857م السـلالة الحاكمـة المغوليـة عـلى يـد البريطانيـين.

أدت الحـرب الإيطاليـة التركيـة بـين العثمانيـين ومملكـة إيطاليا إلى احتـلال تريبوليتانا سـنة 1912م. قادت تلك الأحـداث إلى ردود أفعال في المجتمعـات الإسـلامية مـن القرن الثامن عـشر حتى يومنا هـذا، ونقلت هـذه الأخبـار في الإعـلام بصـورة مبالـغ فيها. بهـذه الكيفية تحـول إعلام المسـلمين إلى إعـلام معـارض، ولقـد اسـتعمل مؤخـرًا الإعـلام الإلكـتروني المعـاصر للهـدف والغايـة نفسـها. هـذا النـوع مـن الإعلام صـاغ طريقة تفكـير المسـلمين المعاصرين.

نوعيـة تفكـير المسـلمين المعاصريـن لا تقـوم عـلى تعاليم الإسـلام، بـل تنبثـق وتنشـأ من إعلام المسـلمين الـذي يتحدث ويظهر باسـتمرار بلغـة الاحتجـاج والمعارضة.

هـذا النمـط الذي تبناه إعلام المسـلمين أدى إلى سـلبية المسـلمين، وتحولـت المجتمعـات المسـلمة إلى مجتمعات يملؤهـا الغضب، وتوجه جـام غضبهـا إلى غيرهـا مـن المجتمعـات. وعندمـا تبـين فشـل ثقافـة حمـل السـلاح، ونتيجـة للغضـب المتزايـد، لجـأ البعـض إلى العمليـات الانتحاريـة لزعزعـة أعدائهـم المزعومين.

لاتقوم الجهادية المعاصرة على إعمال العقل، ولا على تعاليم الإسلام، وما هي إلا نتاج لغضب وخيبة أمل المجتمعات الإسلامية وتفكيرهم السلبي.

لقد قيل إن أعظم الأخطار التي نواجهها اليوم، هو خطر تجنيد الشباب المسلم (Radicalization)، والسؤال ما هي مصادر التطرف الديني؟ بكل تأكيد ليس القرآن ولا السنة النبوية بالمصدر الأيديولوجي لذلك التطرف. إن مصدر هذه الثقافة هو استخدام المسلمين للانترنت والسوشيال ميديا (social media) التي تعتبر امتداداً لإعلام المسلمين ومثلت لدى المسلمين مدخلاً سهلاً كوسيلة الانترنت التي يتم استعمالها على نطاق واسع وهم بذلك ملؤوا مواقعهم على الانترنت بصور وتقارير زائفة و مضللة لتبين أن مجتمعات المسلمين في خطر. هذه القدرة على التواصل التي تتميز بها السوشيال ميديا وصلت إلى كل مكان في عدة صور ومنها الهواتف النقالة التي دخلت كل الجيوب.

أسهمت مواقع التواصل وثقافة الانترنت بشكل كبير في تطرف عقول الشباب المسلم، وحتى يتم إنقاذ الشباب المسلمين من هذه الثقافة السلبية يجب القيام بحملة إعلامية واسعة لإيقاظ الوعي بطريقة تمكن الشباب من فهم المعلومات المعروضة في المواقع الإلكترونية وتحليلها، وتمكنهم من التمييز بين الحق والباطل، وهذا الكتاب هو محاولة لمساعدتهم في هذا المجال.

العنف لا يمكن استئصاله بالعنف، لأن العنف بالمقابل سيزيد من غضب المسلمين، وتزايد الغضب هو الدافع وراء العمليات الانتحارية.

كل المجتمعات الإسلامية تقريبا في هذا العصر تتحدث بلغة الاحتجاج والشكوى، وبسبب هذه الإشكالية الفكرية صار المسلمون أكثر تقبلاً للتوجهات السلبية لا الإيجابية. تحت تأثير هذه الشاكلة الفكرية يتعامل المسلمون مع الأخبار الإيجابية بشك وريبة. أقصى ما يعلمه المسلمون هو أن الآخرين أعداء، وهم غير قادرين على رؤية الآخرين كونهم خلق الله. كل ما يرونه هو الجانب السلبي للأحداث، ويعجزون عن رؤية الجانب الإيجابي لها.

لقد صاغ المسلمون المعاصرون مصطلحا جديدا ألا وهو (الإسلاموفوبيا) أو رهاب الإسلام.

وهذا يعني أن الغرب أخطأ إذ يعتبر أن الإسلام خطر على غير المسلمين، والحقيقة مغايرة. أعتقد أن هذا المصطلح سيكون ملائماً بتحوير بسيط ألا وهو أن المصطلح يجب أن يكون (المسلم فوبيا) أي إرهاب المسلمين وليس إرهاب الإسلام.

لقد اعتنق المسلمون ثقافه العنف باسم الإسلام، ومن هذا المنطق يحق للغرب اعتبار المسلمين كونهم مصدر خطر، ولكن الإسلام في ذاته هو رحمة من الله للناس كافة. ولكن المسلمين المعاصرين بسبب تأويلاتهم الخاطئة لدينهم فسروا الإسلام على أنه دين العنف.

رهاب المسلمين (المسلم فوبيا) هو خطاب للمسلمين لا غير، وهو يخاطب المسلمين لهجر التأويل الباطل للإسلام والبعد عن ثقافة المسدس والقنابل حتى لا يسيء الآخرون فهم الإسلام، وليتمكن لهم فهم وإدراك رحمة الله التي أرسلها الله في دين الإسلام.

والسؤال المطروح في هذا العصر أين هي نهاية النفق؟ على المصلحين في هذا العصر التركيز في دعوتهم على الشباب، ذلك أن الشباب في سنوات تكونهم الأولى متحررون إلى حد ما من الأنماط الفكرية السائدة، وهم بذلك قادرون على النظر بموضوعية، وقادرون على المدارسة والاختيار بطريقة خالية من التعصب. يجب أن تبدأ جهودنا بغرس جذور التفكير الإيجابي عند المسلمين في سن مبكرة.

الأجيال المسلمة الجديدة هي أملنا، وخاصة أولئك الذين يتسلحون بالعلم الحديث. التعليم الحديث يساعد على تحرير العقول من الأنماط الفكرية السائدة. وهم قادرون على رؤية العالم بطريقة أكثر موضوعية وتطوير قدراتهم لفهم الأشياء بطريقة واقعية. هؤلاء الشباب المسلمون هم أملنا في المستقبل.

شرور الإعلام الموجه

الصحافة المطبوعة والاتصالات الإلكترونية ظهرت في العصر الحديث، الذي يوصف بعصر المعلوماتية، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا جلب عصر الاتصالات معه عصر الكراهية؟... من الواضح والجلي أن الناس من جميع الفرق تقريباً - عدا أصحاب العلم - لا يحملون سوى الكراهية تجاه الآخر، والسبب هو الأخبار المنتقاة على يد الكتاب وأهل الخطاب والوعاظ، والتي تعرض على عامة الناس. كل فرقة وفقاً لاهتماماتها الخاصة تبث اخباراً منتقاة لسبب ما أو لآخر، فتنقل أخباراً أحادية الجانب عن غيرها من الفرق التي تعتبرها خصماً منازعاً.

ناشطو حقوق الإنسان والمصلحون الاجتماعيون والقادة السياسيون والصحفيون والكتاب المحترفون كلهم تقريباً يحذون هذا المسار.

إن التقارير الأحادية الجانب من هذا النوع، تجعل فرقة أو جماعة ما غير متعاطفة أو متسامحة مع غيرها من الفرق والجماعات. وفي الظروف والأحوال العادية تبقى هذه المشاعر خامدة، ولكنها مع مرور الزمن تشتعل عادةً لتأخذ شكل العنف والإرهاب. والإرهاب المعاصر بكل تأكيد نتيجة لهذه الظاهرة.

في مهنة الأخبار المتحيزة -أحادية الجانب- تعتبر المجتمعات المسلمة هي الأكثر نشاطاً من غيرها من المجتمعات، وهناك مثالان توضيحيان لهذه النقطة، المثال الأول هو كتاب العالم السوري الأصل عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني الذي ألف العديد من الكتب باللغة العربية تحت عنوان «سلسلة أعداء الإسلام (2000)»، عنوان أحد هذه الكتب هو (أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها) ويذكر في هذا الكتاب ثلاثة مسميات للمكر تعمل على تدمير الإسلام والمسلمين ألا وهي الاستشراق والتبشير والاستعمار.. هذا الوصم أو النوع من التصنيف لا مبرر له، لأن الموصوفين ليسوا بمتآمرين، ذلك ان نشاطاتهم تعكس وجهة نظرهم.

كل جماعة لها وجهة نظر خاصة بها، كما أن للمسلمين وجهة نظر خاصة بهم. والوصم أو التصنيف المذكورأعلاه هو نتاج لغياب الموضوعية عند معاينة تلك العوامل وتصنيفها بطريقة انتقائية. وإذا نظر الآخرون إلى نشاطات المسلمين بطريقة انتقائية سيخلصون إلى أن المسلمين متآمرون.

أظهرت التقارير على سبيل المثال أنّ الإسلام هو الدين الأكثر نمواً وانتشاراَ في بريطانيا[38]. إذا ما فسر هذا الأمر بصورة انتقائية

38- Siobhan Fenton, "Church of England 'one generation away from extinction' after dramatic loss of followers," The Independent, June 1, 2015,

متحيزة، سيرى الآخرون في نشاط المسلمين مؤامرة ومكائد لأسلمة بريطانيا، ولكن إذا نظر الناس إلى نشاطات المسلمين في إطار أن الناس يتمتعون ويمارسون حرية الاختيار سيبدو الخبر كونه تحولاً طبيعياً.

لقد حدثت تغيرات تاريخية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أبرزها الاستعمار الصهيوني والشيوعية والتوسع الأمريكي. لقد افترض المسلمون خطأ أن هذه الأحداث ضد للإسلام، وبسبب هذا الافتراض الخاطئ حارب المسلمون هذه القوة، ولتبرير أعمالهم نسبوها إلى الإسلام معلنين أن الإسلام في خطر ولكن هذا التصريح مجانب للصواب، يجب على المسلمين عدم اعتبار هذه التغيرات كونها ضداً للإسلام، بل وجب النظر إليها كونها ظاهرة من الظواهر العادية. لقد أدّى الفهم الخاطئ من المسلمين إلى تفاقم المشاكل.

إذا ما تمتع المسلمون بحرية العمل، فعليهم السماح للآخرين بالقيام بأعمالهم وليتمتعوا بالقدر نفسه من الحرية. إذا ما وصف المسلمون الآخرين أنهم متآمرون فعليهم القبول بوصف الآخرين لهم أنهم متآمرون. إذا كان للمسلمين بعض التحفظات فعليهم القيام بتحليل عقلاني لأفعال الآخرين وأقوالهم، ولكن ليس من حقهم وصف الآخرين بمسمّى المؤامرة لأن ذلك يعد لغة عدائية.

ليس من الممكن تغيير نزعة الكتّاب وأهل الخطاب ولكن من الممكن تعليم الناس ألا تستفزهم الأحداث والتقارير وعليهم تجاهلها حتى لا يتاثر تفكيرهم بها سلباً.

<http://www.independent.co.uk/news/uk/church-of-englandone-generation-away-from-extinction-after-dramatic-loss-offollowers-10288179.html>, [accessed on July 19, 2015].

كان هـذا مثـالاً للإعـلام المطبـوع، ولنتأمـل مثـالاً آخـر لحـدث تداولتـه كلاً مـن الصحافـة المطبوعـة والإلكترونيـة. أسـتاذة مسـلمة تدعـى طاهـرة أحمـد مـن جامعة شـيكاغو نـورث ويسـت كانت على طائـرة يونايتـد ايرلايـن في 30 مايـو 2015م، وفي خـلال الرحلـة طلبـت قنينـة مـشروب كوكاكـولا مغلقـة. اعتذر منهـا المضيف الجـوي بالقول إنـه ليـس بوسـعه إعطاؤهـا قنينـة مغلقـة ولكـن المسـافر بالكـرسي المجـاور حصـل عـلى قنينة بيرة مغلقـة. قالت طاهـرة إن المضيف علل عـدم تلبيـة طلبهـا بـأن المسـافرين قـد تسـتعمل القنينـة سـلاحاً أثناء الرحلـة. نـشرت طاهـرة أحمـد عـلى صفحـة الفيـس بـوك الخاصـة بها هـذا الخـبر «المضيـف الجـوي تعامـل معـي بعنصريـة».

واسـتعملت الهاشـتاج «الإسـلامفوبيا حقيقـة». لجـأ الناشـطون الإسـلاميون إلى السوشـيال ميديـا وتناولـوا الحـدث كونـه تعصباً لا يغتفـر ووجهـوا دعوتهـم لمقاطعـة خطـوط يونايتـد ايـر لايـن بسـبب التعصـب والتمييـز العنـصري.[39]

هـذا الحـدث حـدث تافـه، ولكـن تـم تقديمـه بهـذه الصـورة على الفيـس بـوك، فصـار خـبراً مثـيراً عنـد الإعـلام وتـم تناقلـه عـلى نطـاق واسـع. هـذا النـوع مـن الأخبـار الـذي نـراه بشـكل يومـي سـاعد على تنميـة مشـاعر الكراهيـة عند المسـلمين لغيرهم عامة وللغـرب خاصة. هـذا النـوع مـن الأخبـار الانتقائيـة مـن أعظـم مشـاكل المسـلمين في هـذا العـصر، ذلـك أنها أدت إلى انتشـار التفكير السـلبي في كافة أرجاء العالم.

39- "United Airlines faces boycott for 'Islamophobia' at 30,000 feet," The Times of India, New Delhi, May 31, 2015, p. 22.

الكتـاب والصحفيـون المسـلمون الذيـن عملـوا عـلى نشر مثـل هذه الأخبـار تحولـوا إلى نمـط في الكتابـة يحتـذى بـه وهـم المسـؤولون عـن الشـاكلة الفكريـة المعـاصرة. ليس من الممكـن تغيير نزعـة الكتّاب وأهل الخطـاب أوميولاتهـم، ولكـن مـن الممكـن تعليم النـاس أن لاتسـتفزهم الأحـداث والتقاريـر وعليهـم تجاهلهـا حتـى لا يتأثر تفكيرهم بها سـلباً. كل إنسـان يتمتـع بحريـة في هذه الدنيـا ولا يمكننا أن نمنـع الآخرين من حرياتهـم، ولكننـا نتمتـع بالحكمة، فيجب ألا نصـوغ أفكارنـا وآراءنا بناءً عـلى تقاريـر خاطئـة، بل يجب أن تكـون آراؤنا مبنية على أسـاس عقلاني.

العمليات الانتحارية

العمليـات الانتحاريـة في العـصر الحـالي تعبير أومظهـر فريد ومريع مـن مظاهـر العنـف، لعل أسـوأها وأشـدها فتـكاً الهجوم عـلى نيويورك (سـبتمبر 2011م) عندمـا هاجـم مسـلحون بـرج التجـارة العالمـي، حين اختطـف المسـلحون أربع طائـرات ركاب مدنية تحطمت اثنان في برجي التجـارة العالمـي.. نتج عن الهجـوم مقتل 3000 إنسـان، وتحطم البرجان المكونـان مـن 110 طوابـق مما تسـبب فى أضرار هائلة للمبـاني المجاورة.

لا شـك أن المسـلمين يتصـدرون قائمـة مسـتعملي الوسـائل الفتاكة في العمليـات الانتحاريـة عـلى الرغـم من تحريـم الانتحار وفقـاً لمبادئ الشريعـة الإسـلامية. أورد البخـاري أن أحـد المسـلمين جـرح في إحـدى المعـارك ولم يتحمـل شـدة الألم فقتل نفسـه بسـيفه، وكانـت هذه أول حالـة انتحـار في عهـد الإسـلام، فأخبر الرسـول عنـه أنـه في النار.[40]

وفقـا للنـص والمفهوم الإسـلامي، الانتحارعمل غـير مشروع، فكيف صار للمسـلمين مؤسسـات قائمة تدرب الشـباب على القيام بالعمليات

40- صحيح البخاري، حديث رقم (3062).

الانتحاريـة. إن القيـام بهـذه النشـاطات يتطلـب دعـماً ماديـاً كبـيراً، والمسـلمون هـم مـن يقدمـون هـذا الدعـم المـادي لتلـك المؤسسـات، ولذلـك فـإن المجتمعـات الإسـلامية بكاملهـا متورطة في هذه الأنشـطة بطريقـة مبـاشرة أو غـير مباشرة.

كتـب الأمريكي اللبناني الأصل جبران خليـل جبران (1833 - 1931م): «لاتسقط أوراق إلا بالموافقة الصامتة للشجر».[41]

السـبب الرئيـس وراء الأعـمال الانتحاريـة في العـصر الحـالي، هو أن المسـلمين في هذا العصر تكونت لديهم رؤية أن العالم ينقسـم قسـمين. مسلمين وكفار، فغيرالمسلمين كلهم كفار. فهناك دول يحكمها المسلمون هـي دار الإسـلام، امّا الدول التي يحكمها غير المسـلمين فهـي دار الكفر. بسـبب إشـكالية هـذا التفكير أبيحـت تلك الأعمال الشـنيعة ضد الكفار المزعومـين. وبسـبب هـذه العقلية السـلبية تجرأ بعض علماء المسـلمين عـلى التصريـح علناً بمشروعيـة الأعـمال الانتحارية مع العلـم أنها أعمال محرمـة بـكل مـا تعنيـه الكلمـة، ولقـد أصـدر بعـض العلماء المسـلمين فتـاوى تبيـح الانتحـار، وصاغـوا مصطلـح الاستشـهاد تبريـراً للعمليـات الانتحاريـة. ولا شـك في خطـأ هـذه الفتـاوى ومـن الغريـب أن علـماء المسـلمين لم ينتقـدوا علنـاً هذه الفتـاوى الباطلة.

العمليات الانتحارية المعروفة ب Hari-Kiri اسـتعملها اليابانيون عـلى نطـاق واسـع، ولهـا جـذور تقليديـة في المجتمـع اليابـاني، حيـث يقـدم الفـرد عـلى الانتحـار بشـق البطن. كـما نعلم بأن وسـيلة (هاري كـيري) اسـتخدمها اليابانيـون خلال الحـرب العالمية الثانيـة وتبين عدم جدواهـا وفاعليتهـا فتركهـا اليابانيون.

41- Khalil Gibran, The Prophet, New York, Knopf Doubleday Publishing Group, 1923, Chapter 12.

ممارسة العمليات الانتحارية على يد المتطرفين الإسلاميين أثبتت أيضا عدم فاعليتها. إنّ مثل تلك الهجمات التي تقتل عدداً من الأبرياء، ولا تأتي بأية نتائج ايجابية. والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا تستمر العمليات الانتحارية على الرغم من فشلها في تحقيق النتائج؟ السبب هو أن المسلمين استخدموا مفهوماً لا أساس له من الصحة مفاده أن قتل المؤمن في ساحات المعركة شهادة ثوابها الجنة، ولا شك أن هذا معتقد باطل، فوفقاً لتعاليم الإسلام لا يوجد أدنى شك في أن الذين يقتلون أنفسهم يموتون ميتة جاهلية ولاجنة لهم.

قرر الإسلام أن الدنيا دار الإنسان عامة، مسلمين وغير مسلمين، والواجب هو أن يتعامل المسلمون مع الآخرين باعتبارهم خلق الله. رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة جنازة يهودي فوقف، وعندما سئل عن سبب وقوفه مع أن الجنازة كانت ليهودي، رد قائلاً: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا.»[42]

لقد عبّر النبي عن القاسم المشترك بين شخص النبي واليهودي، ذلك بأن الله خلق النبي، والله هو الذي خلق اليهودي. هذا هو الأساس الحقيقي للمساواة.

وفقاً لتعاليم الإسلام لا يوجد أدنى شك أن الذين يقتلون في العمليات الانتحارية يموتون ميتة جاهلية ولاجنة تنتظرهم.

صناعة الأسلحة في عالمنا اليوم، هى أحد أهم الصناعات الناجحة على المستوى المادي. والسؤال: من الذي جعل صناعة الأسلحة صناعة ناجحة مزدهرة. لا شك أنه المشتري. هؤلاء الزبائن هم خلق الله الذين وهبهم عقولا لتسخيرها لتحقيق مقاصد الشريعة الخيّرة، ولكنهم

42- صحيح البخاري، رقم الحديث 1312.

استعملوا عقولهم في أعمال الهدم لا البناء مناقضين إرادة الله سبحانه وتعالى، سيسألهم الخالق رب السموات والأرض فهل لديهم الجواب؟

زاوية النظر

الشاعر الأنجليزي والكاتب الديني فريدرك لانكبريدج[43] قال في أحد أشعاره (نظر اثنان من خلال قضبان السجن أحدهما رأى الطين والآخر رأى النجوم)[44].

بالنظر إلى حدث ما، فلا شك أن زوايا النظر تختلف. يعتمد الرأي الذى يكونه الفرد على زاوية النظر. النظر من زاوية ما يجعل الفرد إيجابياً، بينما النظر من زاوية أخرى قد يجعله سلبياً. تجلت هذه الظاهرة بوضوح في أحداث 11 سبتمبر، ذلك أن طائفة من المسلمين رأت في الولايات المتحدة الأمريكية عدواً للإسلام وجب تلقينه درساً. اختطفت مجموعة من الإرهابيين أربع طائرات ركاب تحطمت اثنتان منها في البرجين الشمالي والجنوبي لمركز التجارة العالمي في نيويورك، وسببت أضرارا هائلة في المباني المجاورة.

بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي، شاركتُ في مؤتمر نزع الأسلحة الذرية الذي انعقد في مدينه زوغ Zug بسويسرا بتاريخ 12 أكتوبر 2002م .ألقيت كلمة عرجت فيها على أحداث هجوم 11 سبتمبر المروعة، فذرفت عيناي كما ذرفت في مكتبي بنيودلهي عندما أذيع الخبر في حينه.

43- Frederick Langbridge (1923-1849).(Two person looked from the prison bars one saw the mud and the other saw the star).

44- Leslie Vernick, Lord, I Just Want to Be Happy, Eugene, Harvest House Publishers, 2009, p. 204.

سبب بكائي هو علمي أن المتورطين في أعمال العنف افتقدوا الحكمة. لقد رأوا مركز التجارة العالمي من زاوية نظر سلبية، ولو أنهم نظروا من زاوية نظر إيجابية لاستفادوا درساً عظيماً.

سافرت إلى نيويورك في فبراير 1998م، وصعدت إلى برجي التجارة العالمي، وحيث رأى المتطرفون البرجين من زاوية نظر سلبية نظرت إلى تلك المباني من زاوية نظر إيجابية، وتبين لي الحكمة والخير الكثير. لقد تبين لي أن التقنية الحديثة منة وهبة عظيمة من الله سبحانه وتعالى، ذلك أنه إذا ضاقت المساحات الأفقية لعمليات البناء منحت التكنولوجيا الحديثة للإنسان القدرة على التوسع المعماري العمودي.

أنزل القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي قبل ظهور الحضارة الحديثة، ولقد ورد في القرآن نبوءة تاريخية عن المستقبل مفادها {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}، (سورة فصلت 53)، وهذا يعني انه بعد نزول القرآن ستبدأ عملية تغيير جذرية في هذه الدنيا، وقد بلغت هذه العملية التطورية ذروتها في القرن العشرين.

برجا التجارة العالمية رمز وعنوان لذلك التطور التاريخي، فقديماً أمكن للبشر التوسع أفقياً في عمليات البناء ولكن اليوم وبفضل التقدم التكنولوجي أصبح التوسع العمودي حقيقة.

برجا التجارة كانا رمزاً لفضل الله ونعمته على بني الإنسان، ومع ذلك فقد اعتبر بعض المسلمين برجي التجارة رمزاً لأعدائهم المزعومين وتم تدميرهما بغزو جوي لم يسبق له مثيل.

نبوءة القرآن السابق ذكرها، تجلت بطرق متعددة في هذا العصر، ومثال ذلك أن الإبداع أوالإعجاز في مخلوقات الله لم يُر فيما

مـضى إلا بالعـين المجـردة، لكـن اليـوم أمكـن رؤيـة الإبـداع بتفاصيـل دقيقـة بعـد اخـتراع المجهـر والتلسـكوب. لقـد تمكنـا في المـاضي مـن الدعـوة إلى ديـن اللـه عـلى نطـاق محـدود، لكن اليـوم نتيجـة للتقدم العلمـي في مجـال الاتصـالات والطباعة يمكـن لنا أن نقـوم بالدعوة إلى اللـه عـلى نطـاق عالمي.عندمـا تعـذر السـفر والترحال لعوائـق لم يمكن تفاديهـا كالجبـال والغابـات الكثيفـة والمحيطـات اخترعـت الطائـرات لتعلـو فـوق كل هـذه العوائـق وتجعـل السـفر ممكناً وسـهلاً ومريحاً.

فى عـصر الملـوك كان للعـوام مـن البـشر فـرص محـدودة، ولكـن الديمقراطيـة الحديثـة قلّصـت بصورة اسـتثنائية من القوى السياسـية للحاكـم، وهـذه الظاهـره فتحـت مجال الفـرص لعامة النـاس للتقدم في العديـد مـن المجـالات. قامـت العصـور السـابقة عـلى التعصـب الدينـي، أمـا اليـوم يتمتـع عامـة النـاس بحريـة دينيـة لم تتوفـر لهـم مـن قبل.

صـيّرت التغـيرات في هذا العصر العنف أمـراً عقيماً، وإن التطورات في هذا العصر مكنّت الأفراد من تحقيق الأهداف المنشـودة بالوسـائل السـلمية، تلـك الأهـداف التـي لم تتحقق في الماضي إلا بوسـائل العنف. كل توسـع في المـاضي أدى إلى المواجهـة، ولكـن وسـائل التطـور اليـوم أدت إلى إمكانيـة التوسـع عـلى نطـاق واسـع دون الحاجـة إلى اللجـوء إلى المواجهـة والعنف تجـاه الآخرين

إنهـا حقيقـة كـون الإنسـان بطبيعته طموحـاً ولتحقيـق طموحاته لجـأ في المـاضي إلى محاولـة إلحـاق الهزيمـة بالعديـد مـن الأمـم أو احتـلال مزيـد مـن الأراضي بخـوض المزيـد مـن المعـارك الواحـدة تلـو الأخـرى، ولكـن اليـوم لا حاجـة للإنسـان أن يسـلك هذا السـبيل، ذلك أن التكنولوجيـا المعـاصرة صـارت البديـل المناسـب لتحقيـق كل تطـور

وتقدم دون اللجوء إلى العنف والقتال. لقد فتحت التكنولوجيا الحديثة الأبواب على مصراعيها لتحقيق السلام.

فالعصر الحديث هو عصر التكنولوجيا ومن يستمر في السير في ساحات القتال، فإنما يبرهن على عدم درايته بالفرص والإمكانات المتاحة لهم في هذا العصر. إنهم يطلبون الحياة في عصر السلام بعقلية الحرب التي أكل عليها الدهر وشرب.

لقد استمرت الحقبة الأوروبية الاستعمارية من القرن السادس عشر الميلادي إلى منتصف القرن العشرين، وكان الهدف الأساس للعمليات الاستعمارية هو الاستحواذ على السوق العالمية لتحقيق الإنتاج، وكان هذا ممكننا فقط بالسيطرة سياسياً على البلدان الأخرى، فتحول الاستعمار عملياً إلى استعمار سياسي، ولكن اليوم أمكن للدول الصناعية تحقيق أهدافها بصورة أكبر من ذي قبل دون الحاجة إلى شن الحروب والمعارك، وهذا التغير لم يكن ليحدث لولا التطور التكنولوجي الحديث.

إن أولئك المسلمين الذين يحاربون من أجل تحقيق مكاسب سياسية قد لايكون لديهم علم ودراية أنهم بتوظيف المصادر التكنولوجية الحديثة يمكنهم تحقيق كل أهدافهم بسلام، وعلى العكس من ذلك فإن وسائل العنف لا تأتي إلا بمزيد من الخسائر المادية والبشرية.

الحياة في هذا العصر

المشاكل التي تواجه المجتمعات الإسلامية في هذا العصر مصدرها واحد ألا وهو عدم الدراية بإمكانات العصر المتاحة. إذا كان العصر السابق عصراً تقليديا، فإن العصر الحديث غير تقليدي، بكل ما تعنيه

كلمة عصر حديث. ولكن المسلمين اليوم غير مدركين لهذه الحقيقة، ولأن أعمالهم ومخططاتهم تمارس بصورة تقليدية كانت نتائجها دائما عقيمة وغير مجدية. يحيا المسلمون المعاصرون مفارقة تاريخية، إنهم يعيشون الحاضر متمسكين بطريقة تفكير العصر السابق أو بعقلية تقليدية. إن أية مجهودات بغية إصلاح المجتمعات الإسلامية لن يكتب لها النجاح إلا بإحداث تغيير جذري في عقلية أو طريقة تفكير المسلمين. يجب أن تخرج الجهود المبذولة المسلمين من الماضي ليعيشوا الزمن الحاضر.

خلال الحرب الإيطالية - التركية (1911 - 1912م)، كان للمقاتلين الليبيين شعار مفاده «مت اليوم عزيزاً قبل أن تموت غداً ذليلا». الراية التي طُبع عليها الشعار شاهدناها ولا تزال تعرض في المتحف الإسلامي بطرابلس. تعبّر هذه الراية عن مشاعر المسلمين إلى يومنا هذا، ولكن الحقيقة تناقض خطة الله في الكون.

الشعار الصحيح يجب أن يكون «الحياة هبة من الله، ويجب أن توظف لأهداف خلاقة. كل بني الإنسان حباهم الله بخصائص فريدة، وإنه نقيض لخطة الله في الكون أن يعيش الإنسان ليحارب ويقتل فقط.

كل الخلق يجب أن يعيش ويوظف قدراته توظيفاً صالحاً. كل التقدم الذي نراه في هذه الدنيا لم يتحقق على أيدي من حارب وقتل، بل تحقق على أيدي أولئك الذين وظّفوا حياتهم التي وهبها الله لهم توظيفًا خيّرا.

لو لجأ الإنسان في كل بقاع الأرض إلى الحرب لم يكن ليحدث أي تقدم وتطور، وحتى وسائل الحرب الحديثة التي يستخدمها المتطرفون لم تكن لتظهر إلى الوجود.

لايـزال سـواد عظيـم مـن المسـلمين حتـى يومنـا هـذا، متأثريـن بطريقـة تفكـير المقاتلـين الليبيين. إن عنف المسـلمين اليـوم، ينبثق عن طريقـة التفكـير هذه.

تـدرك الجماعـات الإسـلامية التـي تمـارس الإرهـاب جيـداً قـوة الأطـراف الأخـرى، وتعلـم أن أعمالهـم والعنـف الـذي يمارسـونه لـن يكـون لـه أي تأثـير، ولكنهـم يواصلـون أعـمال العنـف. إن الدافع وراء هـذا العنـف هـو الاعتقـاد الباطـل إن ممارسـة العنـف تحت مسـمّى الجهـاد وقتلهم فيه شـهادةً ومصيرهم إلى الجنـة والنعيم الدائمين، هذا الاعتقـاد باطـل ولا يوجد أفراد أو جماعات تسـعى لقتل المسـلمين، بل عـلى العكـس من ذلك، فالمسـلمون هم من اسـتحدث نظريـة المؤامرة لإلحـاق الـضرر أو قتـل المسـلمين. هـذا الخوف غـير الطبيعـي الذي لا أسـاس لـه يدفعهـم إلى العنـف وسـاحات القتـال، فهـو الأمـر الـذي لا يـؤدي إلا إلى مزيـد مـن التقهقـر والانحطـاط. كل الأحـداث ماهـي إلا هجومـات قـام بهـا المسـلمون أدت إلى ردود أفعـال مـن الغـير .

الشـاعر السـوري المعـروف خـير الدين الـزركلي توفي عـام 1976م. في كتابـه «الأعـلام» الـذي يتكـون مـن مجموعـة مجلـدات ذكـر فيهـا أعـلام المسـلمين في المـاضي قـال: إن المسـلمين يمكـن لهـم النهـوض من جديـد، إذا ظهـر مـن جديـد رجـل بعظمـة الأولـين. وفي أحـد أشـعاره عبّرعـن هـذه العواطـف قائلاً:

هات صلاح الدين ثانيا فينا وجدد حطين أو شبه حطين

تعكـس هـذه الأبيـات الشـعرية للـزركلي تفكـير المسـلمين المعاصريـن. دوّن الأدب الإسـلامي انتصـارات صـلاح الديـن الأيـوبي والقـادة المسـلمين في الحقبـة التاريخيـة الأولى للمسـلمين بتفصيـل

دقيق مما أدى إلى اعتقاد المسلمين أنه إذا ولد رجال من أمثال صلاح الدين فسيقودهم إلى النصرالذي تحقق لهم سابقا في القرن العشرين. هذا التفكير يعبرعن فقدان للمعرفة الدقيقة بالعصر الحديث. المسلمون غير مدركين أن النصر (نصر صلاح الدين) في القرن الثانى عشر لايمكن تحقيقه في هذا العصر. لقد ظهر قادة من أمثال صلاح الدين، كسيد قطب وياسرعرفات وقادة مجاهدين آخرين، ولكن لم يتمكنوا من تحقيق أى تقدم للمسلمين. الحنين إلى عودة صلاح الدين هو للأسف عدم إدراك لحقائق العصر الحديث. على المسلمين إدارك أن القوة في هذا العصر لا تقاس بالحرب، ولكن تقاس بمدى التقدم العلمي والتكنولوجى.

فى هذا اليوم، وفي هذا العصرالطريق الأكيد للنجاح هو العمل في نطاق العوامل الفاعلة السابق ذكرها، وعدم الأخذ بعين الاعتبار متطلبات العصر وإملآته هو السبب في ذهاب أعمال المسلمين ومجهوداتهم أدراج الرياح.

لماذا ينضم الشباب إلى الجماعات الإرهابية؟

ينضم الشباب في عصرنا هذا بأعداد كبيرة إلى الجماعات الإرهابية، ويظن البعض أن هذه الظاهرة غير قابلة للتفسير. ولكن من واقع التجربة يمكن لنا توضيحها بمصطلحات قابلة للفهم. الشباب لديهم طاقة ونشاط كبير، ولديهم الرغبة في القيام بأعمال ثورية، وهم قادرون على تسخير أنفسهم لأهداف عظيمة، لإشباع هذه الرغبة عملنا أنا وزملائي بطريقة ناجحة إلى حد كبير.

إن العلم بحماس ورغبة هؤلاء الناس للأنشطة والأعمال الإيجابية، قادنا إلى عمل مشروع عالمي ذي طبيعة مسالمة. قام هذا

المشروع على العمل على توزيع تراجم معاني القرآن الكريم وبعض المطبوعات المساعدة إلى كل أمم العالم. ولنجاح هذا المشروع قررنا ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الرئيسة، للتعريف بالإسلام، وحاليا لدينا مطبوعات لتراجم القرآن الكريم بعشر لغات عالمية.

عندما أطلقنا المشروع انضم إليه شباب كثير من المسلمين وغير المسلمين بحماس كبير، وقاموا بعمل برامج عمل بأنفسهم لأجل أن تصل التراجم إلى الناس كافة في مختلف أرجاء العالم. وحقيقة إن أخبار القرآن والإسلام أصبحت مادة للبحث وموضوعا للإعلام المعاصر. وأحدث ذلك استعدادا عند الآخرين لقبول نسخة من تراجم معاني القرآن الكريم، الأمر الذي شجع كل المشاركين في هذا المشروع على نطاق واسع.

خلال مؤتمر عالمي عقد بتاريخ 20 - 30 أبريل 2015م، في أبو ظبي تحت إشراف منتدى تعزيز السلام في المجتمعات الإسلامية ألقيت خلال هذا المؤتمر كلمة نوهت فيها على ضرورة إيجاد بديل عملي ذي صبغة سلمية إذا أردنا فعلا تغيير شاكلة التفكير لدى الشباب، وأفضل البدائل هو نشر القرآن الكريم وتوزيعه على مستوى العالم.

هذا الهدف وضعه رسول الإسلام في القرن السابع الميلادي، فقد ورد في سنته صلى الله عليه وسلم قوله أن القرآن كلمة الله ستصل كل بيت (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار...)[45]، لم يكن هذا الحديث إلّا نبوءة في عصر النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولكن اليوم في عصر التكنولوجيا الحديثة والاتصالات صار من الممكن تحقيق هذه النبوءة على أعلى مستوى.

45- مسند الأمام أحمد، حديث رقم (23814).

العنف باسم الإسلام صار مادة إعلامية في كافة أنحاء العالم، وهذا الحال جعل من القرآن مادة للنقاش وزاد من فضول الآخرين لمعرفة رسالة القرآن ودراسته والخير الكثير الذي يمكن أن تقدمه للشباب هو إعطاؤهم هدف تبليغ القرآن لمن أراد أن يتعلم.

يجب على الشباب المسلم النهوض لنشر رسالة القرآن في كل أنحاء العالم، وهذا العمل أكثر بملايين المرات جاذبية عند الشباب المسلم من جاذبية الإرهاب. المشكلة الأساسية والوحيدة هي أن الشباب المسلم لم يفتح لهم مجال الإدراك والوعي بهذه المهمة، وإذا ماتم توضيح أهمية هذا العمل للشباب المسلم بلغة يفهمونها سينبذ - بكل تأكيد - الشباب الإرهاب، ويسرعون الخطى في سبيل مهمة نشر القرآن الكريم وتوزيعه.

أحد الأبحاث المعاصرة تؤكد على أن ظاهرة الإرهاب لها صلة مباشرة بالحاضر. الخبيرة بالعلوم السياسية (ف.ب فورتونا) من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية في رسالتها عن الإرهاب ذكرت التالي: الإرهاب وسيلة رخيصة الثمن لإلحاق الأذى والألم بالآخرين[46].

إن الثقافه الإرهابية المعاصرة هي نتيجة لتغذية مشاعر الغضب، فما الذي يفعله الإرهابيون سوى إلقاء قنابلهم السلبية المتغلغلة في أعماقهم على أعدائهم المزعومين. يجب أن يوضح لهم أن بين أيديهم سلاحاً أقوى ألا وهو القرآن الكريم، قنبلة إيجابية أكثر تأثيراً وفاعلية بملايين المرات من قنابل العنف التي يلجأون إلى استخدامها. سينجح

46- Virginia Page Fortna, "Do Terrorists Win? Rebels' Use of Terrorism and Civil War Outcomes," International Organization, Vol. 69, Issue 03, Summer 2015, pp. 519-556.

هذا التوجّه على أن يشجع الناس على استبدال منهج العنف بالسلام. هذه الحقيقة جُرّبت فيما مضى في عهد الإسلام الأول. كان العرب مجتمعاً قبلياً في ثقافته، تبنى ثقافة السيف في مواجهة الأعداء، ولما أُنزل القرآن الكريم كان البديل الإيجابي لتلك الثقافة. لقد حولت أيديولوجيا القرآن العرب إلى أبطال السلام.[47]

انطلق المسلمون خارج حدود المنطقة العربية ونشروا رسالة القرآن في كافة الأرجاء. كتب عالم الإنثروبولوجيا آرثركيت كتابه بعنوان: «نظرية التطور الجديدة»(1948)، عرج فيه على ذكر تاريخ مصر القديمة، وعلق فيه على كيفية دخول المصريين إلى الإسلام قائلا: «لم تفتح مصر بالسيف بل بالقرآن».[48]

إذا أدرك المسلمون أن القرآن هو البديل فسيشهد العالم كيف أن منفذي أعمال العنف بالأمس هم أبطال السلام اليوم.

السلام عن طريق التعليم

الروائي الروسي الشهير ليو تولوستوى (1828 - 1910م) اعتبر من أعظم الروائيين على مر الزمن، كتب قصة قصيرة عنوانها (حكمة الأطفال) وطبعت أول مرة سنة 1885م، ذكر في هذه القصة ملاحظة عندما شاهد بعض الأطفال يلعبون. والأمرالذي أثار انتباهه هو أن الأطفال خلال اللعب يدخلون في نقاشات حادة ولكن خصامهم لا تعقبه كراهية ومواجهة، بل يعودون سريعا إلى اللعب من جديد كما بدؤوا أول مرة.

47- Phillip K. Hitti, The Arabs: A Short History, Washington DC, Regnery Publishing, 1996, p. 57.

48- Arthur Keith, A New Theory of Evolution, London, Watts & Co., 1948, p. 303.

تولستوى اعتبر أن هذا هو نموذج الطبيعة لحياة السلام. الاختلافات تظهر بين البشر، ولكن يجب ألا تتعدى التعبير اللفظي، ولايجب ان تؤدّي إلى مشاعر الكراهية والعنف والحروب.. لقد كانت رواية تولستوى تقوم على فحوى هذا النموذج الذي تقدمه الطبيعة.

إنها لحقيقة أن نموذج الطبيعة يماثل مانجده في حياة الأطفال في مرحلة التكوين، ذلك لأن «الأنا» لازالت في مرحلة التطور. إنهم يعيشون مرحلة ماقبل «الأنا»، ولكنهم عندما يكبرون ليكونوا جزءاً من المجتمع، تختلف أفعالهم وسلوكياتهم. إن كل التحديات والمشاكل في الدنيا هي ظاهرة النمو أو التقدم في السن عند الأطفال، عندما يكبر الأطفال، تنمو «الأنا» لديهم ويتحولون إلى أنانيين. كيف يمكن للنموذج الخالي من «الأنا» أن ينطبق على «الأنا»..؟

في مرحلة الطفولة يحكم سلوك الإنسان فطرته التي فطر عليها ولكن عندما ينضج الإنسان فالذي يحكم سلوكه هو الوعي والإدراك. الآن أصبح دور الفطرة في حكم سلوك الأطفال محدوداً، والمطلوب في هذه المرحلة هو تطوير طريقة تفكير الراشدين حتى يتمكنوا من التعامل بسلوك الأطفال على وعي وإدراك وقوة إرادة.

كتب تولستوي وأدباء آخرون العديد من الرويات التي كانت مصدراً للترفيه والاستمتاع، ولكنها لم تكن أداة للتدريب المنهجي للعقل البشري. من أجل التدريب الواعي للقراء فإنه من الضروري كتابة مايخاطب العقل والمنطق، ومثل هذه الكتب يجب أن تقوم على الحقائق التاريخية مستشهدة بالمعرفة العلمية، ويجب أن تقدم أمثلة لخبرات وتجارب شخصيات حقيقية لا شخصيات خيالية.

الخيال يعنى بالحس الترفيهي ولايخاطب عقله. عندما نتحدث عن شيء بالمنطق الخيالي، فإن ذلك لا يعود بأية نتائج ذات قيمة، ولن يحدث أي تغيير جذري حقيقي في حياة الأفراد وسلوكهم.

أعظم قدرات الإنسان ومواهبه هي القدرة على التفكير العقلاني، لقد قيل إن الإنسان حيوان يفكر. قراءة الروايات مصدر للترفيه والتسلية، ولكن إذا أردنا إحداث ثورة في حياة الأفراد، فعلينا أن نقدم الحقائق بطريقة تقوم على المعرفة الحقيقية والتفسير العقلاني، هذا هو السبيل الوحيد الذي يمكننا من خلاله إحداث ثورة وتغيير في طريقة تفكير الأفراد، ولا يمكننا إحداث أي تغيير ذي فائدة ونفع إلا بالثورة الفكرية.

إن بناء مجتمع يقوم على السلام، يحتاج إلى إعادة هندسة العقل البشري، وهذه المهمة يمكن القيام بها عن طريق التعليم، ولعل التعليم غير النظامي أقرب من التعليم النظامي. المقصود بالتعليم غير النظامي هو تحصيل المعرفة عن طريق الإعلام والأدب والندوات والمؤتمرات وعن طريق الحوار.... الخ

هنا أنا اتحدث عن السلام من وجهة نظرية، ولكنني خضت التجربة العملية في مدينة كشمير، حيث عملت على تعليم التفكير السلمي منذ سنة 1968م، ولا زلت أبذل قصارى جهدي لتحقيق هذا الهدف. ولقد حدث تغيرعظيم نتيجة لهذا العمل، واليوم تجد في كل بيت من بيوت الكشميريين مادة علمية تدعو إلى السلام وتعلم السلام.

في سنة2011م، نظمنا اجتماعاً مع الكشميريين الذين لهم معرفة بأفكارنا، وبهذه المناسبة قال أحد المتحدثين نيابة عن مجموعة من الكشميريين، إنهم تقدموا بخطى بعيدة من أكتوبر1968م حتى

أكتوبر 2011م، لقد كنا نرمي الجيش الهندي بالحجارة، واليوم نقدم لهم مطبوعات وأدبيات السلام.

بعد أن كانت كشمير ساحة للعمليات العسكريه منذ سنة 1947م، صارت إلى حد بعيد بلد سلام، وإذا ما مورست أعمال عنف فهي لا تحدث على أيدي الكشميريين، ولكنها نتيجة لحرب بالوكالة تحت إشراف أيد خارجية ورعايتها.

المثال أعلاه تحقيق السلام عن طريق التعليم يمكن ممارسته في أي مكان، وأكثر الطرق تاثيرا ونجاحا لإحلال السلام هو طريق واحد ألا وهو التعليم.

إن أفضل طريقة لإحداث التغيير في المجتمعات هي التعليم . قبل عصر الطباعة لم تكن الكتب متوفرة، ولذلك كان من الصعب تعليم الناس على مستوى واسع النطاق، والحرب هي من بقايا العصر القديم، عندما حاول الناس إحداث التغيير بالقوة الأمر الذي ينتهي دائما إلى شن الحروب.

اليوم نعيش في عصر الطباعة، والكتاب أصبح متوفراً مما جعل إحداث التغيير ممكناً فى المجتمعات بالتعليم على مستوى واسع النطاق.

إن أولئك المنشغلين بالحرب لأجل الإصلاح يبرهنون على عدم علمهم ودرايتهم بهذه الحقائق، ولو أنهم أدركوا لألقوا السلاح جانبا وأعملوا جهدهم وإمكاناتهم في مجال التعليم.

الفصل السادس:

السلام في العالم الإسلامي

الطمأنينة هي الأهم

العقل من أهم ملكات الإنسان، وبيئة السلام هي البيئة المناسبة والمهمة ليعمل فيها العقل ويبذل أقصى طاقاته. فالعقل من أعظم الهبات التي أنعم الله بها على الإنسان، وكل الإنجازات البشرية إنما هي ثمار النشاط العقلي. ولكي يؤدي مهمته ويعمل بكل هدوء يحتاج إلى السلام الذي بدونه ما كانت ولن تكون هناك إنجازات على الإطلاق.

لقد استمر حكم الأمبراطورية الرومانية لأكثر من ألفي عام، ولم يحدث تقدم علمي على مدى هذه الفترة الطويلة، ويعزو معظم المؤرخين هذا الأمر إلى انعدام حرية الفكر، فكل من يعبر عن وجهة نظرٍ تخالف نظر الملك يقتل، فالقول السائد هو: «الملك لا يخطئ أبداً» فهو الشخص الوحيد الذي يحق له أن يفكر، وكل تفكير غير تفكيره يقمع وبكل قوة، لذا كان من الطبيعي أن يؤدي هذا الجو إلى الركود الفكري الكامل.

لقد وضعت الثورة الفرنسية نهايةً لنظام الحكم الملكي الوراثي الذي كان سائداً، وبهذا انبلج فجر الديمقراطية مما أدى إلى ظهور حرية الفكر الفردي. ففي الماضي كان للملك الحق في التفكير، أما اليوم فالحق مكفولٌ للجميع، فكل فرد يحق له أن يفكر، وبهذا تضاعفت عملية النشاط الفكري مليارات المرات، وفتحت الثورة الفكرية الباب أمام العلماء ليعملوا الفكر مما أدى إلى ظهور الاكتشافات العلمية الحديثة.

إنّ تقدم وسائل المواصلات على سبيل المثال، كان بسبب الأبحاث العلمية حيث كانت هذه الإمكانات مخفيةً في الطبيعة في

صورتها الأولية، ثم أصبحت حقيقة واقعة، فطبقاً للخطة الربانية كل شيءٍ يوجد في حالته الأولية كهذه المنح التي ظهرت في العصر الحديث. إنّ الذين ينخرطون في الأعمال الإرهابية يسيرون عكس الخطة الإلهية بتقويضهم للسلام، وطبقاً لسنن الله فإن وجود السلام الشامل والكامل في العالم ضروري ليتمتع كل فرد بالحرية الكاملة حتى يفكر ويعمل دون تدخل أحدٍ، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تحويل كل ما هو كامنٌ في الطبيعة إلى حقيقةٍ واقعة. فعندما يقوم الإرهابي بقتل شخص ما فهو بذلك يقضي على عقلٍ يفكر، ولو قتل أكثر فإنما يقضي على عقولٍ أكثر، وبناءً على ذلك فعندما تقوم مجموعة ما بأنشطة مسلحة لتحقيق أهدافِها الخاصة فهذا وبدون أدنى شكٍ يعرض النظام الرباني للخطر.

إن العقل البشري يعد إمكانية عظيمة، لكنه لا يعمل إلا في وجود السلام، فبغياب بيئة السلام ستبقى إمكانات العقل الكامنة راكدة دون استغلال، ولن يتاح استغلالها أبداً. وبهذا فإن من ينخرطون في الأنشطة الإرهابية إنما يمارسون أعمالاً تضاد الطبيعة وتعارضها.

إنّ الأحداث والتجارب تؤكد على هذه الحقيقة، فمند انخراط المسلمين في هذه الأنشطة في العصر الحديث، لم يظهر إلى النور أيّ تقدمٍ أو تطورٍ علمي في العالم الإسلامي، لقد تحولت المجتمعات الإسلامية جميعا إلى مجتمعات مستهلكة وغير منتجة عكس ما كانت عليه في الماضي.

طبقاَ للمبدأ الذي نجده في الطبيعة الذي عبر عنه القرآن على النحو التالي: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، (سورة الرعد

17). يتبين لنا أن الذين يبرهنون على أنهم نافعون هم فقط من يستحقون النجاح. إنّ الذين ينخرطون في الأنشطة الإرهابية في العالم الإسلامي هم العائق الدائم أمام تطور المسلمين وتقدمهم. فعلى هؤلاء أن يوقفوا الأنشطة الإرهابية ويقوموا بدفن أسلحتهم فورا حتى يعم السلام العالم الإسلامي بالكامل وينتشر من جديدٍ، وليبرهنوا على أنهم مجتمع منتجٌ وخلاق.

إنّ البلاد التي ينتشر فيها الإرهاب ينهار فيها التعليم والتطور العلمي، أمّا التي يعم فيها السلام فينتشر فيها التقدم ليعم كل المجالات، وهذا يدل عليه المثل الذي يقول: (حيثما حل السلام ظهر التطور والتقدم في كل المجالات، أمّا العنف فيقضي على جميع الأنشطة البناءة.) إذ لا يمكن أبداً الحصول على أي هدف خلاق عن طريق الحرب والقتال، فلا يمكن زرع شجرة أو إنشاء مدينة نموذجية أو مجتمع متمدن متعلم عن طريق القتال.

إنّ الذين ينخرطون في الأنشطة الحربية يبرهنون على أنهم غير واعين ولا مدركين لحقيقة الحياة، فمحاولتهم الحصول على أهداف إيجابية بهذه الطريقة هو بمثابة حكم جائر ضد الإنسان وضد الخالق. إنّ الكون بكامله نموذجٌ للسلام إلا أنه سلام مجبول وليس بالاختيار، والله العلي القدير شاء أن يخلق الإنسان الذي يمكنه أن يختار السلام عن محض إرادته أي سلام باختيار، وأسكنه الأرض ووعد كل من ينجح في هذا الاختبار بالجائزة العظمى، أما من يختار ثقافة العنف فإنما يسير ضد خطة الله في الخلق، وبهذا يعرض نفسه للحرمان من هذه الجائزة التي هي وعد من الله.

إنّ عقلية هؤلاء إنما تؤدي إلى تعطيل التفكير الخلاق وهذا يؤدي إلى الركود والجمود الفكري، ويا لها من خسارة فادحة تجعل الاستمرار في العنف ولو لحظة واحدةٍ عملاً لا مبرر له.

جدول أعمال لم يكتمل

حين ترأس الجنرال راحيل شريف القائد الأعلى للقوات المسلحة الباكستانية المؤتمر المنعقد في الأكاديمية العسكرية للدفاع بإسلام أباد في يونيو 2015م، أعلن» أن كشمير وباكستان لا يمكن أن تنفصلا وأنّ ضم كشمير هي الغاية السامية التي يسعى لتحقيقها»[49]

إنّ مقولته هذه تظهر جانباً كبيراً عن العقلية العسكرية للمسلمين في وقتنا هذا، وهي السبب من وراء انخراط المسلمين في أعمال العنف في بقاع الأرض جميعاً، فالبعض قد انخرط فيه مباشرة، أمّا الآخرون إنما يفكرون على الشاكلة نفسها.

ظاهرياً هناك جماعات وطوائف متعددة داخل المجتمع المسلم، إلا أنها جميعا تحمل فكرة مشتركة واحدة، وهي أن لها غايةً سامية لم تدرك وتسعى جاهدا لتحقيقها. يبدأ الحافز على مستوى العقل، وسرعان ما تبدأ المطالبات والاحتجاجات، وفي نهاية المطاف يستخدم العنف، فما هي الغاية السامية التي لم تتحقق بعد؟ لدى البعض هي كشمير، والبعض الآخر هي القدس، وعند آخرين هي الخلافة، أو تطبيق الشريعة، هذه هي الغايات التي يقاتل المسلمون من أجلها أعداء مفترضين، ولكن رغم مضي فترات طويلة من الزمن لم تتمكن أي مجموعة من تحقيق غايتها هذه.

49- Mateen Haider, "Pakistan and Kashmir are inseparable: General Raheel Sharif," Dawn, June 3, 2015, <www.dawn.com/news/1185928>, [accessed July 19, 2015].

لماذا – إذن - هذا الفشل؟ هناك آية قرآنية تلقي الضوء على هذه المسألة حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، (سورة آل عمران 139). وآيات عديدة أخرى تبين أن النجاح في هذه الدنيا حليف من يسير وفق السنن الإلهية، ومن يخالفها فلن يتحقق له النجاح، وهذه السنن لا تحابي أحداً سواء كانوا مسلمين أو غيرهم.

هذه السنن تعني أن الغلبة السياسية لا تكون دائما لصالح مجموعة ما، فقد تكون في أيدي البعض في زمن ما، ثم في أيدي آخرين في وقت آخر ولقد ذكر هذا المبدأ في مواضع عديدة في القرآن، على سبيل المثال سورة آل عمران، الآية 26:﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾.

طبقاً لهذا المبدأ فإن عدم تحقيق أحد ما لهدفه رغم الحرب والقتال دليل على أنه يخوض حرباً في غير محلها. إنها محاولة تحقيق هدف مستحيل طبقا للقوانين الربانية. إن المبادرة بإعلان الحرب في هذا الوضع أمر مسموح به، أما الاستمرار فيها فليس له مبرر. فقد تعلن جماعة ما الحرب لتقديرات خاطئة ثم تدرك أنها فشلت في تحقيق هدفها المطلوب رغم التضحيات العظيمة في الأرواح والأموال، عندها يتوجب عليها أن تتوقف حالا، وتغير وجهتها إلى الوجهة الصحيحة، في هذه الحالة فإن البداية الخاطئة يمكن الصفح عنها، أما الاستمرار على الخطأ نفسه فهو أمر مرفوض رفضا تاما ولا يمكن الصفح عنه.

تنخرط العديد من الجماعات الإسلامية اليوم في القتال لتحقيق غايتها السامية غير المدركة، ولكن الأحداث تظهر أنها جميعاً تواجه

الفشل التام، لقد حان الوقت أمام الجميع لأن يتوقفوا ويغيروا وجهتهم ويسلكوا الطريق الصحيح، إنه من الضروري على كل مجموعة أن تضع حدا لهذا الأمر وتتوقف عن القتال ولتكتشف من خلال دراسة القرآن والسنة النبوية العمل الذي يتوجب عليها القيام به.

إن العنف لا يعد أبدا الخيار أمام المسلمين، ولا يجب أن تكون غايتهم الكفاح من أجل تحقيق الأهداف السياسية.

ليس أمام المسلمين إلا خيار وحيد ألا وهو الانخراط في نشاط الدعوة السلمي.

يتبين لنا من خلال دراسة القرآن أنه منزل للناس كافة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. (سورة الفرقان 1)، لذا فإن الغاية السامية التي لم تدرك بالنسبة للمسلمين هي واحدة وهي تبليغ تعاليم القرآن ونشرها في العالم أجمع.

على المسلمين أن يدركوا أن عدم نجاحهم في كل المجالات التي يخوضون فيها إشارة وتنبيه رباني لهم، وعليهم أن يعلموا أن الله غير راض عن الأنشطة التي يمارسونها اليوم، إن ما يرجوه الله منهم هو العمل من أجل الغاية المطلوبة الصحيحة، ولو أنهم قاموا بذلك فسيستحقون نصرة الله، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج 40).

إن الله في انتظار أن يمن بنصره على الذين يختارون القيام بالهدف الصحيح وهو النشاط الدعوي السلمي.

منهج الجنرال ديجول

عندما بدأ الاستعمار الأوربي في الانتشار في كل الجهات خلال القرن السادس عشر اتجهت بريطانيا لاستعمار الدول الآسيوية، أما فرنسا فقد اتجهت إلى أعماق القارة الأفريقية، حيث استولت على الجزائر سنة 1830م. وكان ذلك بداية الاستعمار الفرنسي لشمال أفريقيا، ثم استولت بعد ذلك على عدد كبير من الدول الإفريقية حيث بلغت الدول التي وقعت تحت حكمها 15 دولة.

لقد حرص الاستعمار الفرنسي على أن يكون الحكم السياسي لهذه الدول شديد الصرامة، فقد كان حكماً بغيضاً عند الشعوب الإفريقية، مما أدى إلى ظهور العديد من الحركات التحررية، فكان على الفرنسيين أن يرسلوا الجيوش تلو الجيوش لإخماد هذه الثورات حتى تبقى هذه الدول تحت سيطرتهم مما أدى إلى ارتفاع الميزانية العسكرية فوق الطاقة فلم تعد محتملة، وهذا نتج عنه تأخرها في مجالات عديدة لحد كبير. فقد تأخرت في السباق النووي أمام قريناتها من الدول.

وعندما تولى الجنرال شارل ديجول حكم فرنسا سنة 1958م، كان الانحطاط الاقتصادي قد بلغ مستوى خطيراً جدا، فأصبح اهتمام الرئيس ديجول منصباً على أن يجعل لفرنسا مستقبلاً جديداً وحياة جديدة بدل المحافظة على عزتها وكبريائها، وعندما فكر في الأمر بموضوعية وصل إلى نتيجة مفادها أنه لكي يصل إلى غايته عليه أن يمنح الاستقلال لكل المستعمرات الفرنسية في إفريقيا، وبهذا دخل في مفاوضات مع القادة الأفارقة، وفي خلال فترة وجيزة منح الاستقلال للدول الإفريقية التي كانت تحت الحكم الفرنسي.

لقد كان حلاً جذرياً، إلا أنه توجب على ديجول أن يدفع الثمن الباهظ حيث أقيل عن الحكم في سنة 1969م لانهيار شعبيته، حتى أن ذكرى وفاته لم تخلد أبدا. وبالرغم من ذلك فإن تقدم فرنسا السريع كان سببه سياسة ديجول هذه، فقد أصبحت الدولة الأولى في أوربا في مجال العلوم النووية. على القادة الإسلاميين اليوم أن يأخذوا الدرس من هذا المثال، فقيادتهم للمسلمين لم تقدم مكاسب إيجابية بل على العكس من ذلك كان لها نتائج سلبية ضد المسلمين، لذا توجب على القادة الذين يتصدرون المشهد القتالي اليوم أن يغيروا سياساتهم تغييراً جذرياً، إذ عليهم أن يتخلوا عن استعمال العنف وأن يتبنوا الأسلوب السلمي. إن سمعتهم كقادة حتما ستتأثر بسبب سياسة التغيير الجذري هذه، إلا أنه بالنسبة للمجتمعات الإسلامية جميعا وبكل تأكيد ستبدأ مرحلة التقدم في مجالات البناء والرقي لكي تصبح مجتمعات ناهضة، بدل كونها مجتمعات متخلفة.

إن الجانب الأعظم لهذا الأمر هو أن نظرة الناس للمسلمين ستشهد تغييرا عظيما نحو الأفضل، حيث أدى خوض المسلمين في الأنشطة الحربية التي استمرت لفترات طويلة إلى وصف الإسلام لدى الجميع بأنه دين العنف. ولو أن المسلمين سلكوا أسلوب السلام فإنه يمكن أن يعرف الإسلام بأنه دين السلام الذي يحث أتباعه على العمل والعيش في سلام. في الواقع إن تقديم صورة صحيحة عن الإسلام يعد من الأشياء العظيمة التي يمكننا القيام بها.

إن العمل الذي قام به شارل ديجول ليس سياسة خاصة به، بل سياسة مبنية على أسس من السنن الكونية، إنها السياسة المتعارف عليها بالاستدارة على شكل حرف «يو» باللغة الأنجليزية أي تغيير الاتجاه بالكامل.

يقال: من يخطئ فهو بشر، فكل فرد أو دولة من الممكن أن يرتكب الأخطاء، فإذا وجد أحدنا أن أنشطته ليست مثمرة ولا تعطي النتائج المرجوة وجب عليه أن يكون على أتم الاستعداد لمراجعة سياسته في الحال، وعليه أن يغير اتجاهه فوراً، إن ارتكاب الأخطاء في كل الأحوال ليس أمرا لا علاج له، بل كل ما يتطلبه النجاح هو مراجعة السياسة وتغير الاتجاه.

هناك البعض من القادة الإسلاميين في هذا الزمان قد سلك منهج العنف وليس الجميع، ونتيجة لأوضاع العصر الحديث حاز هذا الأسلوب على تأييد الغالبية العظمى من المسلمين، إلا أن التجارب أثبتت أنه ليس الخيار الصحيح حيث لم يعط الثمار المرجوة، وبناء على هذا وجب القبول بالتضحية بالتخلي عنه وسلوك مسلك جديد حتى ولو كان الوقت متأخرا، وذلك بمراجعة سياستهم بالكامل، فهذا أفضل من لا شيء على الإطلاق.

إن الديجولية ليست سياسة الجنرال الفرنسي لوحده بل هي سياسة تسير على خطى سنن الكون، إن النواميس أوسنن الكون توضح لنا أنه عندما لا نحصل على النتائج المرجوة وجب علينا أن نكون على أتم الاستعداد لتبني استراتيجية التراجع، فالتراجع يعد في ظروف عديدة نوعاً من التقدم إلى الأمام.

الفصل السابع:

الإسلام والسلام

الإسلام دين السلام

هناك قاعدتان أساسيتان في الإسلام هما التوحيد والسلام، فالتوحيد يعتبر الأيديولوجية الأساسية للإسلام، فهو المصدر المباشر وغير المباشر لكل الأعمال في الإسلام، أما السلام فهو الجانب العملي للإسلام، حيث يكون الأساس لبيئة طبيعية تفسح المجال لتمارس عمليا أيديولوجية الإسلام وتعاليمه.

عند دراسة القرآن، فإننا نجد أنه يعطي اهتماماً عظيماً للآخرة وليس للحياة الدنيا، لأن الحياة الآخرة حياة أبدية، أما الحياة الدنيا فإنها زائلة، وطبقا لعقيدة القرآن فإن العمل من أجل الحياة الدنيا إنما هو بمقتضى حاجة، أما العمل للآخرة فهو الهدف، لذا نجد أن الذين قد تأثروا بأيديولوجية الإسلام قد تحول تركيزهم بالكامل إلى الآخرة والجنة.

تبعاً لهذا كان من الطبيعي أن تكون أسباب الحرب وما يسعرها كالحسد والثأر والعنف والكراهية أموراً غير مرغوب فيها، فحيثما سيطرت ثقافة الإسلام وحلت فلن يبقى أي وجود لأسباب الحرب، وكان اختيار الناس من تلقاء أنفسهم العيش باعتبارهم مواطنين في مجتمع مسالم.

إن الصراع على السلطة والطمع فيها هو السبب دائما وراء الحروب على مدار التاريخ البشري، وقد وضع الإسلام مبدأ يقوم على أساسه نظام الحكم وهو الشورى، وقد عبرت عنه الآية القرآنية بالتالي: «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» (سورة الشورى 42). هذا يعني أن الحكم في الإسلام إنما ينبثق ويخرج من داخل المجتمع ولا يأتي من

الخارج، فهو ليس أمراً يتم فرضه من قبل أحد ما، والحديث التالي يبين الأمر:«كما تكونوا يولى عليكم.»[50]

إن أسباب الحروب من أجل بلوغ السلطة دائما تكون رغبة شخصية أو رغبة جماعة ما لإزالة منافسيهم عن السلطة، وهذا ما يؤدي إلى نشوب الحرب بين الطرفين، أخذاً بمبدأ أن السلطة ليست أمراً يتم فرضه، وإنما هي شيء ينبثق من داخل المجتمع، فإن أسباب الحرب ستتقلص تلقائياً. فلو أن لأحد ما أفكاراً للممارسة والإدارة السياسة، فليس أمامه إلا خيار واحد وهو نشرها سلميا بين أفراد المجتمع وليس فرضها عليهم، وعليه أن ينتظر حتى يقبلها المجتمع تلقائيا. فلا يحق لإحد فرض إفكاره السياسية.

توجد العديد من الآثار النبوية التي تحث الناس وتأمرهم بعدم الدخول في صراع مع الحكام، ولو كانت عندهم شكوى ضد حكامهم فعليهم تغيير الساحة ليصرفوا طاقاتهم ونشاطاتهم في مجالات أخرى غير السياسة. وهناك العديد من الآثار المدونة في كتب الحديث في باب الفتن، وقد لخص الإمام النووي رأي الأمة في هذا الأمر بالقول: «وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق.»[51]

إن هذا المبدأ لا يعني أبدا هجر السياسة وتركها، ولكنه يحمل في طياته حكمة عظيمة، فهو يبين أن الإسلام يفرق بين الأنشطة المختلفة ويفصل بينها ويجعل لكل واحد مجالاً لتخصصه، فلو أنك درست القرآن

50- شعب الإيمان، البهيقي، حديث رقم (6006).
51- المنهاج شرح صحيح مسلم،بيروت، دار أحياء التراث العربي، 1972، مجلد 12، ص 229.

وخاصة الآية41 من سورة الحج[52]، وآيات كثيرة في هذا الجانب، ستجد أن القرآن يفرق بين مجالين اثنين من الحياة : المجال السياسي و المجال غير السياسي، حيث يقترح مجالين للعمل، وطبقاً للقرآن فإن واجب الحاكم إيجاد مناخ سلمي يخلق الانسجام داخل المجتمع، أما واجب المصلحين فهو الاهتمام بالأنشطة غير السياسية مثل التعليم الرسمي وغير الرسمي والعمل الدعوي (تبليغ رسالة الله للناس)، وأن يغرسوا في أذهان الناس التفكير السوي وغيرها، وبهذا يقوم كل فريق بدوره في بناء مجتمع أفضل، ويؤدي كل فريق وظيفته بكل يسر، وتنتهي الصدامات والمواجهات. إن مبدأ تقسيم المهام يقضي على أسباب المواجهة والصدام داخل المجتمع، ونتيجة لهذا ينعم المجتمع في انتشار السلام وليس في وجود الحروب. تهدف هذه التعاليم وغيرها، وكذلك الواردة في القرآن والسنة إلى وضع نهاية للحرب والعنف داخل المجتمع، لتنشأ بيئة طبيعية مبشرة تنتشر فيها الأنشطة الصحية البناءة.

الحقيقة هي أن الإسلام هو دين السلام بكل ما في الكلمة من معنى، وليس أبدا دينا يدعو إلى الحرب. فالسلام هو المبدأ الرئيس في الإسلام، أما حالة الحرب فإنما هي الاستثناء في ظروف نادرة، وعلاوة على ذلك، فالاستثناء قد يكون صالحاً في العصور التي كانت الثقافة القبلية هي السائدة فيها، أما هذا العصر فهو مختلف تماماً، فنحن نعيش في عصر الديمقراطية وعصر الأمم المتحدة، لذا فإن مصطلح الحرب قد أصبح مهجورا في القوانين الدولية اليوم، ولو أن حربا قد نشبت في هذا الزمان فهي ضد الطبيعة السائدة، وهي ضد التوازن الكوني.

52- يشير الكاتب لقوله تعالى: (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

التكافل قانون الطبيعة

طبقا للسنن الكونية فإن حياة الناس تبنى على أساس مبدأ التكافل، وأن التباين والتفاوت متوارث في البناء الاجتماعي، ولن يكون المجتمع في سلام وتناغم إلا إذا قبل كل فرد من أفراده هذا التباين والتفاوت مع الحاجة الظاهرة إلى التكافل، حيث يشير القرآن إلى هذا الأمر في الآية 31، من سورة الزخرف ، قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. إن هذه الآية تبين أن التقدير الإلهي يقضي بعدم التماثل بين الناس، ولكن التفاوت أوالتباين موجود، وهذا يتضمن حكمة عظيمة وهي أن يدرك الناس أنه لا أحد يمكنه أن يستغنى عن الآخرين ويكون مستقلاً بذاته، فهو في حاجة إليهم حتى يكمل نفسه وهذا ما تقتضيه الخطة الإلهية في الخلق، وبمعنى آخر على كل فرد من أفراد المجتمع أن يقبل التكافل على أنه حالة حيوية لأجل قيام المجتمعات البشرية.

وعلى الناس أن يقبلوا وجود التفاوت على أنه حقيقة واقعة، وإدراك هذا الأمر وقبوله كظاهرة إيجابية داخل المجتمعات البشرية يضع حدا لعدم الاستقرار الاجتماعي. فالواجب علينا أن نبين أن هذا الأمر يسير طبقاً للخطة الإلهية في الخلق، وهذا ما يسير عليه الكون بكامله، إن القبول بهذه الحقيقة يساعد على التخلص من العنف داخل المجتمع، وعدم الرضا والقبول بالتفاوت الذي هو صفة وخصوصية المجتمع البشري سيؤدي إلى الكراهية بين الناس، وباسم إزالة التفاوت من العالم ينخرط الناس في العنف والمواجهة وبهذا تبدأ دائرة مغلقة من العنف المتواصل.

ولـو قبـل النـاس هذا التفـاوت على أنـه حقيقة واقعة، فـإن ثقافة التعـاون أوالتكافـل ستسـود داخـل المجتمـع، وسـيتعاون الأفـراد فيـما بينهـم، وبهـذه الطريقـة تدعـم ثقافـة التعـاون والتكافـل، وسـيؤدي ذلـك إلى انتشـار السـلام في المجتمـع دون شـك.

إن الذيـن ينخرطـون في أعـمال العنـف لا يوجهون هـذا العنف ضد شـخص مـا أو جماعـة، بـل هو ضد خطة اللـه في الخلق، وهنـاك العديد مـن الأوامـر والوصايـا في القرآن والسـنة تحـرم العنف، وأن السـبب من وراء ذلـك هـو أن ثقافـة العنـف تسـير ضد خطـة الله في الخلـق، فطبقا لخطـة اللـه فـإن وصـول هـؤلاء إلى السـلطة إنمـا هـو إنعـام إلهـي أنعم اللـه بـه عليهـم، وعـلى الآخريـن القبـول بذلـك وعـدم الانخـراط في أي تجمـع لإزالتهـم عـن السـلطة. وبمعنـى آخـر فـإن خطـة اللـه تقتـضي المحافظـة والقبـول بالوضـع القائـم، وإن مبـدأ القبـول بالوضـع القائـم هـو الوصفـة الوحيدة للحصـول على السـلام في العـالم. إن محاولة تغيير الأوضـاع القائمـة يؤدي إلى التفرقة، أما إعداد الخطط لممارسـة الأنشـطة المختلفـة مـع القبـول بالوضع الراهن فسـيؤدي إلى السـلام.

فلـو أن فـردًا مـا أو جماعـةً معينـة، لهـا شـكوى أو رأي مخالـف، فليـس أمامهـم إلا التفـاوض السـلمي. إن محاولـة التغيـير عـن طريـق العنـف ليـس خيـاراً لأحـد ولا يوجد عذر مقبـول أبدا في هذا السـياق.

إن وجـود التفـاوت والاختـلاف بـين الرجـال والنسـاء ليـس شراً بل هـو في الحقيقـة خـير، فعندمـا يكمل النـاس بعضهم بعضـا يؤدي ذلك إلى ظهـور ثقافـة التعـاون والتكافـل، وهـذا يـؤدي بالضرورة إلى إرسـاء جو مـن السـلام والمحبـة والصداقة.

إن ثقافة التكافل أوالتعاون تمنحنا كل القيم البشرية الراقية، وهو ما يؤدي إلى ظهور أفضل نظام للمجتمع، إن هؤلاء المنخرطين في أنشطة العنف لا يقوضون أسس المجتمع فحسب بل يضيعون هدفاً لا يمكن تحقيقه أو الوصول إليه وهو التكافل. إنه قانون الطبيعة وأن القبول به يجلب السلام إلى المجتمع ويفتح كل أبوا ب التقدم والرقي.

الشر الأعظم في التاريخ

الحرب ليست ظاهرة جديدة فقد كانت دائماً جزءاً من التاريخ البشري، فمنذ البداية الأولى للبشرية اندلعت الحرب بين ابني آدم، وكانت النتيجة أن هابيل قتل أخاه قابيل، ومند ذلك الوقت استمرت الحرب بين الأمم والجماعات البشرية، ولكن الدرس الذي نستخلصه من التاريخ أن للحرب نهاية دائما، فلا توجد معركة استمرت لفترة غير محدودة، حتى الحربين العالميتين فقد استمرتا لفترة محدودة ثم انتهتا. إلا أن حالة المسلمين تبدو مختلفة تماما، حيث نتعلم درساً من التاريخ مفاده أن الحرب إذا نشبت بين المسلمين فلن تضع أوزارها، هناك حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة نبوءة تبين أن هذا الأمر صحيح تماما حيث يقول «إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة.»[53]

إن المجتمع الإسلامي يعتبر استثناءً في هذه الحالة، فمن خلال التحليل العميق للوضع نجد أن السبب وراء هذا الأمر هو التبرير الشرعي للعنف أي تبريره من خلال الأحكام الشرعية، وكونها مقدسة فإن تبرير العنف من خلالها لا يسمح بأي مجال لمناقشتها.

53- الترمذي، حديث رقم2202، والمستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (3473).

ما هو هذا العنف المشروع يا ترى؟

إنه العنف الذي يمارس باسم الجهاد الإسلامي. إن المعارك التي خاضها المسلمون خلال التاريخ هي باسم الجهاد، وإن الاعتقاد المتوارث عن الجهاد في الإسلام أن الفوز دائما حليف المجاهدين في حالتي النصر أو الهزيمة، فإما النصر أو الشهادة، والشهداء ليس أمامهم إلا الجنة.

إن الأمر الصحيح بالنسبة للجهاد القتالي في الإسلام لا يكون إلا في حالة الدفاع، وبما أن الدفاع أمر يهم الدولة فمن النادر وقوعه، وإن جميع الذين ينشطون باسم الإسلام في ساحة القتال هم في الحقيقة لا يمثلون الدولة، فلا توجد دولة مسلمة قائمة انخرطت في الحرب، إن طبيعة العنف في هذا العصر ليست إسلامية، فالمبدأ الإسلامي المقبول يقول:«إن إعلان الحرب من خصوصيات الدولة القائمة.»[54]

وطبقاً لهذا المبدأ فإن جميع الجهاديين الإسلاميين الذين ينخرطون في الحرب لا يملكون مبرراً شرعياً، فعلى مثل هؤلاء أن يتوقفوا عن الحرب فوراً من جانبهم، وبلا أدنى شرط، ويغيروا وجهتهم بالكامل لينخرطوا في الأنشطة السلمية، ففي هذه الأزمنة بالذات لا يوجد لديهم أي خيار لخوض الحرب، طبقا للأعراف العالمية في هذا العصر وليس هناك أي احتمال آخر عدا السلام.

إن الحروب التي يخوضها المسلمون في هذا الزمان ليست حروب دفاع عن أوطانهم، ولكنها كما يدعون لأجل إزالة الظلم

54- صحيح البخاري، كتاب الجهاد و السير، حديث رقم : (2957). ونص الحديث : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ)

وإحلال العدالة، وبدون أدنى شك فهذه حروب من صناعتهم، فلا يوجد في القرآن ولا في السنة ما يأمر المسلمين بخوض الحرب لإزالة الظلم وإحلال العدالة.

إن حقيقة الأمر هي أن الاعتقاد بأن هذه الحرب شرعية أمر خاطئ، وقد بُني على أساس خاطئ، وهو تفسير خاطئ للقرآن والحديث. إن أسوأ أشكال هذه الحرب غيرالشرعية أنها كانت في البداية موجهة ضد الأمم غير المسلمة، وفي نسختها النهائية تصبح حرباً داخلية بين المسلمين أنفسهم. إن السبب وراء ذلك أن المنخرطين في الحرب حين يفشلون في الحصول على نتائج إيجابية من ورائها، يعتقدون أن وراء ذلك وجود بعض المؤامرات تحاك ضدهم، ومتآمرين من بينهم وبهذا يوجهون عداوتهم إلى داخل مجتمعاتهم، وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد فإن الشر يتعدى كل الحدود والمستويات، ذلك أن الحرب تنشب بين المسلمين أنفسهم فيقتل بعضهم بعضا.

لقد تنبأ رسول الإسلام بهذا الشر قبل حدوثه تصديقاً للحديث الذي يقول:«لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[55] . لقد ظهرت هذه النبوءة في القرن الواحد والعشرين، فنحن نرى اليوم وفي كل أنحاء العالم أن المسلم يقتل أخاه المسلم. ففي معظم العمليات الانتحارية نجد الجاني والضحية من المسلمين.

إن هذه الظاهرة تبين لنا أن الشر الأعظم يظهر عندما يصبح العنف منتشراً بين المسلمين أنفسهم، إن هذا تنبيه للمسلمين فإن لم يكفوا أيديهم عن هذا العنف والقتل وسفك الدماء فسيصبحون في نظر الله كفاراً.

55- صحيح البخاري، حديث رقم 121.

إن هـذا التحذيـر النبـوي يجـب أن يكـون كافيـاً لجعـل المسـلمين يخلصـون التوبـة للـه، ويتركون العنـف جانباً دون أدنى تأخـير، وعليهم أن يلقـوا بأسـلحتهم بعيـداً في البحـر، وأن يمارسـوا حياتهـم بوصفهـم مواطنـين مسـالمين فـلا خيـار آخـر أمامهم.

والله يدعو إلى دار السلام

هـذه آيـة مـن القـرآن الكريـم لهـا صلـة بحـال المسـلمين اليـوم، يقول تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ» (سـورة يونس 25). إن المقصود هنـا بـدار السـلام هي الجنـة، فالجنة هـي مكان السـلام المثـالي، فالله سـبحانه وتعالى يدعو كل البشر ليسـلكوا سـبل السـلام في هذه الحياة الدنيـا حتـى يفـوزوا بالجنـة، فعليهـم أن يوطنـوا أنفسـهم عـلى اتبـاع سـبل السـلام والانخـراط في بيئة السـلام.

كذلـك يصـف اللـه بيئـة الجنة في آيـة أخرى بهـذه الكلمات: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾، (سـورة الواقعة 26-25). هـذا أفضـل وصف للجنـة إنها المكان المثـالي والمجتمع الأمثل والأكمـل، فـلا انزعـاج ولا نصـب فيهـا، إن بيئـة السـلام هـي ما يسـود الجنـة، وهـذا الوصـف يجعل الأمـر يتضمن هـذا التحذير للبـشر: أيها النـاس إن أردتـم أن تضمنـوا دخـول الجنـة، فيتحتـم عليكـم أن تتركوا جميـع أنـواع العنـف، وأن تنخرطـوا في بيئـة السـلام، فالجنـة مـكان يخلـو مـن الكراهيـة، وأن هؤلاء الذين يعيشـون في هـذه الحياة الدنيا في حالـة مـن الكراهيـة فلـن يجـدوا لهم مسـتقرا فيها.

لقـد كان الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم شـخصية محبة للسـلام

بكل معنى الكلمة، وقد وقعت معارك عديدة في زمنه إلا أنها جميعاً كانت معارك دفاعية، وأحد هذه المعارك غزوة بدر التي وقعت سنة 624م، و في الأثر نجد أنه أثناء المعركة كان جالساً في معسكره بعيداً عن مكان المعركة، وقد شوهد وهو يرسم بعض الخطوط على الرمل وقد علق أكبر خان على ذلك قائلا: «إن قائد المسلمين يخطط للمعركة القادمة» هذا الرأي بني على التخمين ولم يأخذ في الحسبان الحقائق، فعندما ندرس الأحاديث الأخرى يتبين لنا بكل وضوح أنه كان يخطط لإحلال السلام في المستقبل.

يمكن أن ندرك هذا الأمر من خلال الحديث التالي: كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً بين أصحابه إذ جاءه جبريل وكان معه ملك لم يطأ الأرض إلا في تلك اللحظة منذ خلقت فقال له: يا محمد إن الله بعثني لأخيرك بين أن تكون ملكاً رسولا أو نبياً رسولاً؟ فأشار عليه جبريل أن يختار الوسطية لأجل ربه، فاختار أن يكون رسولاً نبياً. مسند أحمد حديث رقم 7160.

إن هذا الحديث يبين لنا كيف كان يفكر الرسول فلم يكن عقله سياسياً بل كان عقلاً نبوياً، فلم يكن همه إقامة الحكم في العالم ولكن إبلاغ الرسالة غير السياسية للناس.

هناك أيضا دعاء للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه: **(اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام اللهم أحينا بسلام وأدخلنا الجنة دار السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام)**.

من هذا الدعاء وهذه الكلمات وكذلك ما حدث بعد المعركة يتبين لنا أن الأمر كان مختلفاً تماماً، لقد خاض الرسول تلك المعركة

وهـو مكـره لأن أعـداءه قـد أجـبروه عـلى ذلـك، أمـا في المعـارك التالية فقـد حـاول باسـتمرار تفـادي الوقـوع في القتـال إلى أقـصى حـد، وفي نهايـة الأمـر، وفي أثنـاء المفاوضـات قبـل بـشروط الأعـداء متنـازلاً مـن طرفـه حتـى يحـل السـلام بـين الطرفـين، وبهذا ظهـر إلى الوجـود صلح الحديبية.

إن الحقيقـة هـي أن الحـرب إنمـا هـي ضـد خطـة اللـه في الخلق، فطبقـاً لخطـة اللـه عـلى كل فـرد ولد على وجـه الأرض أن يبني نفسـه ويطورهـا باتبـاع السـبل الروحيـة، وعليـه أن يزيـل جميـع الأمـور السـلبية مـن نفسـه لتحـل محلها الأمـور الإيجابية حتـى يصبح تفكيره إيجابيـا بالكامـل، فطبقـا للقـرآن عـلى كل فـرد أن يجاهد نفسـه حتى يسـمو بهـا ويكتسـب أخلاقاً سـامية. قال تعـالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾، (سـورة النسـاء 4).

باختصـار فـإن خطـة الله تقتـضي أن يسـتمر البنـاء الأخلاقي دون عراقيـل ومنغصـات أمـام الجميـع، ولـكي يكون مثمـراً وبنـاءً، يجب أن يكـون في بيئـة مـن السـلام، وليـس بيئـة العنـف والقتـال، وبهـذا فـإن تجـار الأسـلحة ومروجيهـا لا يعملـون فقـط ضـد البـشر ولكـن ضـد خطـة الله.

إن اختيـار الحرب باعتبارها وسـيلة جريمـة لا يغفرها الله، والدليل الواضـح عـلى هـذا أن هـؤلاء الذيـن جعلوهـا وسـيلة لم يسـتطيعوا أن يحققـوا أهدافهـم التـي يطمحـون إليهـا رغـم كل مـا بذلـوه مـن تضحيـات ولعقـود طويلـة، فالحقيقة هي أن كل الـذي جنوه من ذلك هـو الدمـار والهـلاك لنفـوس المسـلمين وغيرهم.

التدبير الإلهي للتاريخ البشري

نتعلم من القرآن أن أحد قوانين التاريخ هو قانون التدافع، وقد ذكر في القرآن على النحو التالي: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة البقرة 251). فهذا القانون يعني أن الله قد منح الحرية الكاملة للإنسان، ولكنه في الوقت نفسه يراقب باستمرار العالم البشري، وأثناء المحافظة على حرية البشر في التصرف فإن الله يدير ويدبر التاريخ البشري باستمرار، وعلى أساس هذا التدبير الإلهي للتاريخ البشري فإن الاستخدام الخاطئ للحرية لا يصل إلى المستوى الذي يؤدي إلى الفساد العظيم.

إن الحرية التي منحها الله للإنسان في الحقيقة لها هدف خاص ذلك أنها مصممة بحيث تمكن الإنسان من بناء شخصيته في هذا العالم. وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بالحرية، إلا أن هذه الحرية في حد ذاتها قد تؤدي في الغالب إلى سوء استعمال، لهذا فإن الله يراقب دائما وباستمرار تطور التاريخ البشري، حتى لا يؤدي سوء استخدام الحرية إلى أقصى الحدود في التطرف مما يعرض خطة الله للخطر، هذا هو السبب في أن الله جعل نهاية لعصر الملكية على يد الثورة الفرنسية، ذلك أن النظام الملكي لا يكفل الحرية للبشر.

عندما ظهرت الأمبراطورية الشيوعية سنة 1922م، وضعت قيوداً صارمة على الحريات البشرية، وهذا الأمر ضد خطة الله في الخلق، وكان هذا السبب في نهاية الشيوعية بعد 65 سنة من الحكم، إن هذا الأمر لم يحدث صدفة، ولكنه بكل تأكيد بسبب إدارة الله للتاريخ البشري.

إن الأمر نفسه يحدث الآن لهؤلاء الذين استحدثوا تبريراً مشروعاً لأنشطتهم الإرهابية، حيث مارسوا أعمالهم الإرهابية عن طريق حركات إرهابية متعددة. فكل هذه الأنشطة في الغالب تعمل خارج إطار الدولة وهي جميعا ضد خطة الله وبكل تأكيد لها زمن وفترة محدودة. من وجهة نظري فإن هذا الإرهاب سواء سمي باسم الجهاد أو باسم آخر، فإن الله سيزيله دون أدنى شك، ويمكننا أن نقول مطمئنين أن عملية إزالته قد بدأت فعلاً.

إن المجموعات الإرهابية وبالرغم من التضحيات العظيمة التي بذلتها لم تنجح في بلوغ أهدافها التي تصبو إليها، ولم تتمكن إلا من إحلال القتل والدمار في العالم، وفي المقابل فإن الرأي العام العالمي قد انقلب ضدها، وقد فشلت في تسجيل أية نتائج إيجابية يمكن أن تكون تاريخياً إلى جانبها، إن النتيجة السلبية هي أهم دليل على أنها مرفوضة من قبل الخالق، وبالنسبة للمبدأ القرآني فإن قانون التدافع يعمل ضدها. إن الإرهاب وبكل تأكيد سيزول قريبا أو أنه سيصبح ضعيفا إلى حد بعيد .

إن هذا التوقع لمصير الإرهاب يخبرنا أنه من المحتمل أن عصرا جديدا سيبزغ فجره في القريب العاجل، وهو عصر ما بعد الإرهاب أي عصر السلام، وبهذا فإن الأنشطة البناءة ستبدأ حالا، و هي تلك الأنشطة التي يرضاها الله ويحبها، وهي لم تنضج بعد بسبب الإرهاب ، إن أهم جانب في جميع هذه الأنشطة أن عصر السلام سيفرق بين الدين والإرهاب. وأن هذا الفصل بينهما يبشر دون أدنى شك ببزوغ عصر جديد للسلام لكل البشرية.

إن الصحافة أوالإعلام اليوم مملوء بصور العنف، إلا أن الوضع وراء المشهد مختلف تماماً، فهناك عملية تسير بصمت وسط أنشطة العنف الظاهرة هذه، وهذه العملية ستنقل التاريخ من العنف إلى اتجاه السلام.

إنه طبقاً للتقارير الصادرة عن المعهد العالمي للدراسات حول السلام في ستوكهولم، فإن تسع دول في العالم تنتج اليوم أسلحة نووية، وجد أنها جميعا تواجه مشاكل من نوع ما، رغم أن هذه الأسلحة لم تستخدم منذ إسقاط القنابل الذرية في سنة 1945م على كل من نكازاكي وهيروشيما ، إن النتائج المرعبة لاستعمال الأسلحة النووية تظهر المرحلة الأخيرة للعنف، فعند استخدام الحد الأقصى للعنف فليس هناك فواصل يمكن إضافتها، لذا يجب أن تكون هناك قاطعة لهذا العنف. وهذا يحتم بكل تأكيد عدم استخدام القنابل الذرية مرة أخرى . إن الدمار الشامل الذي أحدثه استعمالها أثناء الحرب العالمية الثانية أعطى رسالة مفادها أن استراتيجية العنف لم تعد تعمل وأن كل المؤشرات تشير إلى أن التاريخ البشري يسير من العنف في اتجاه السلام.

المركز العالمي للسلام

لقد عاش ألفرد نوبل بين سنة 1833- 1896م، حيث ولد في ستوكهولم بالسويد، وعمل منذ شبابه في مصنع والده للأسلحة، وجعله اتقاده الذهني شغوفاً بالتجارب الكيميائية وصناعة المتفجرات، وقد أدى ذلك إلى تطوير استخدام البارود، وبفضل إنجازاته في مجال المتفجرات وبراءة اختراعاته أصبح غنياً جداً.

وفي سنة 1864م حدث انفجار قاتل في مصنعه بلفيتروفليسرين ذهب ضحيته شقيقه الأصغر وعدد كبير من الناس مما جعل صحيفة فرنسية تعلن عن طريق الخطأ أن الانفجار قد ذهب ضحيته ألفرد نوبل نفسه، تحت عنوان تاجر القتل يصبح ضحية لأسلحته. حيث ذكرت التالي: «مات بالأمس ألفرد نوبل الذي أصبح غنياً بجعل الناس يموتون بطريقة أسرع مما كان عليه الأمر.» [56]

وعندما قرأ نوبل الخبر أصيب بصدمة كبيرة وأصبح يفكر بطريقة يمكنه بها أن يحسن صورته التي شوهت، فقرر أن يتنازل عن ثروته بالكامل ويسخرها في تقديم جوائز تسمّى باسمه حيث قدم 94% من ثروته البالغة 31 مليون كورونة سويدية التي تقدر بحوالي 186 مليون دولار أمريكي ليؤسس لخمس جوائز، وبهذا اشتهرت مؤسسة نوبل بتقديم جوائز لأعظم انجازات العالم في مجال السلام ومجالات أخرى.

لقد كانت خطة نوبل لبناء صورة حسنة له أعظم نجاح، حيث إن العالم اليوم يذكره على أنه أعظم داعم للسلام، إن قصة نوبل في اختراعاته للأسلحة التي باعها حتى أصبح غنياً التي كانت سببا في تشويه سمعته وصورته تشبه حال المسلمين اليوم.

إن المسلمين اليوم وبسبب الأوضاع السياسية انخرطوا في العمل نفسه الذي قام به ألفرد نوبل إلا أن الفرق يكمن في أن نوبل أسس لتجارة الأسلحة، وأن المسلمين أسهموا لثقافة العنف باستخدام الأسلحة، فإذا كان نوبل قد أسهم في قتل الناس بطريقة غير مباشرة، فالمسلمون ساهموا في قتلهم مباشرة . لقد شوهت صورة نوبل ولكن

56 Frederic Golden, The worst and Brightes Time, october 16,2000

الأمر بالنسبة للمسلمين أسوأ بكثير، فقد أسسوا لثقافة العنف باسم الإسلام ، و مارسوا نشاطاتهم على هذا الأساس، وبهذا فقد تم تشويه صورة الإسلام في حد ذاته، ومما زاد الأمر سوءاً، أننا في عصر الإعلام والصحافة حيث إن الأخبار السلبية عن العنف الذي يمارسه المسلمون تجد طريقه إلى الناس في كل لحظة لتغزو العالم بأسره، وبهذا أصبحت صورة الإسلام في العالم على أنه دين العنف.

لم يضيع ألفرد نوبل وقته في لوم الآخرين على ما أصاب سمعته نتيجة أفعاله، ولكنه وضع كل اللوم على نفسه وقرر تحسين سمعته بأن أعد خطة فريدة لأجل السلام .

لقد حان الوقت أمام المسلمين ليأخذوا القرار نفسه في تغيير الاتجاه كما فعل ألفرد نوبل دون تردد ، وأن يتبعوا الأمر الإلهي الذي جاء في القرآن على النحو التالي : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (سورة النور 31).

إن أفضل طريقة لتحسين صورة المسلمين، هي أن يعملوا على تأسيس مؤسسة ضخمة تحت اسم المركز العالمي للسلام، وعلى الدول الإسلامية والمؤسسات والأفراد أن يكونوا أعضاء في هذا المركز، وأن يشاركوا فيه بكل ما يملكون ليحظى المركز بالدعم من الجميع، على أن يؤسس على أرقى المستويات والمقاييس العالمية، وأن لا يكون سياسياً أو اجتماعياً أو تجارياً، و أن يكون هدفه الوحيد تعزيز السلام ودعمه ونشره، لأجل إحلال ثقافة السلام حول العالم بدلا من العنف. إن المجتمعات الإسلامية عليها دين يجب تسديده ألا وهو نشر كلمة الله وتبليغها إلى كل فرد يعيش على وجه الأرض من الرجال و النساء، وعليهم أداء هذه المهمة بأقصى الجهود

وبالوسائل السلمية، وأن المركز العالمي للسلام هو الوسيلة التي تمكنهم من القيام بهذه المسؤولية، وإن الله بكل تأكيد سيؤيدهم بنصره إذا ما قاموا بمهمة تحسين صورة الإسلام ليصبح دين السلام بدلا من كونه دين العنف.

يبلغ عدد المسلمين اليوم حول العالم حوالي المليار نسمة، و كل مصادر الثروة الطبيعية متوفرة لدى الدول الإسلامية وأن أفضل استعمال لهذه الثروة هو من أجل تحسين صورة الإسلام ، ويجب أن يصمم المركز العالمي للسلام من أجل هذه المهمة.

ملحق: خطة الله في الخلق*

خلص المؤرخ المشهور ادوارد جيبون إلى أن التاريخ البشري لا يعد إلا سجلاً للجرائم والحماقات والإخفاقات البشرية.[57]

وهي عين الخلاصة والنتيجة التي وصل إليها غيره من المؤرخين، فالحياة الفاضلة أو الوجود المثالي المنشود من الفلاسفة لم تعرفه المجتمعات البشرية على الإطلاق. إن أولئك المستشرقون الذين درسوا بعمق التاريخ البشري، رصدوا حالات من الفشل والإحباط في الوصول إلى المدينة الفاضلة، ولم يتأتى لهم تسجيل أي استثناء مغاير لتلك الحالة على مراالتاريخ البشري. وأكدوا على أن ما حدث فى المرحلة الأولى للإسلام أو ما يعرف بـ(العصر الذهبي)، لا يرقّى إلى المثالية (المدينة الفاضلة) رغم ما يتمثله تلك المرحلة بدون شكّ من صورة أفضل بالمقارنة مع كافة مراحل التاريخ الأخرى. ففى حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) راجت النشاطات العدوانية

*هذه ترجمة عن كتيب

57-Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of Roman Empire, Norwalk, The Easton Press, 1974, p.69.

(العدائية) للمنافقين بين المسلمين واليهود والوثنيين خارجياً، ولم تشهد المدينة المنورة مأوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي علامات واضحة على أنها تحولت إلى منطقة سلام.

بعيد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، تمّ اختيار الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) كقائد للمسلمين لتثور عليه معظم القبائل العربية، والتي لم ترضخ إلاّ بعد استخدام القوة لإعادة السيطرة عليها. وهكذا تظهر في كلّ مرحلة تطورات غير مرغوبة لتشكل عقبة أمام قيام المجتمع الفاضل. فى زمن الخلافة الثانية لعمر بن الخطاب، عملت مجموعة سرية فى المدينة على اجتثاث الإسلام، وتمكنت في نهاية المطاف من اغتيال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). وفى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) انطلق سيل المعارضة المفتوحة (الشعبية)، وتمّ بصورة مشابهة قتل الخليفة الراشد علانية. أما فى فترة حكم الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقد أندلعت الفتنة الكبرى التى ذهبت فيها آلاف الأنفس الغالية وأدت لمقتله هو نفسه. ونظرا لتلك الأحداث والوقائع التاريخية، وما تعكسه من مأسى مستمرة، عبر الفلاسفة وأهل الفكر على نظرتهم المتشائمة للتاريخ البشري.

ذلك أنّ الأحداث المتلاحقة عبر هذه الحياة الدنيا، تعكس حقيقة أنّ بناء الدولة الفاضلة يبدو أمراً بعيد المنال ويستحيل تحقيقه.

غير أنّ السبب وراء هذه النظرة المتشائمة للتاريخ البشري، لا يعزى للتاريخ فى حدّ ذاته ولكن في النظرة والتناول الخاطئ

والمعيب في دراسة التاريخ. وذلك أنّ معيار الدراسة للتاريخ حالياً ليس بالمعيار الصحيح، فهو قائم على النظر لأفعال البشر، بينما المعيار الصحيح الذى يجب علينا دراسة التاريخ فى ضوئه هو النظر لخالقنا من خلال اكتشاف حكمة الله فى الخلق وفهم ودراسة التاريخ على هديها.

إننا نتعلم من خلال القرآن الكريم (الدراسة القرآنية)، إنّ الفهم الصحيح للمجتمع الإنساني يدور حول فكرة أساسية وهي «الحرية الفرديّة» وليس «الدولة الفاضلة.»

لقد منح الله تعالى الإنسان كامل الحرية فى أفعاله وأقواله فى هذه الحياة الدنيا كمتطلب أساسيّ لأدائه الاختبار، وهو حرّ فى كل أفعاله حتى أنه قادر على نكران وجود الله تعالى وقتل أنبيائه ومعاداة رسوله.

ولكي تصبح الدولة الفاضلة واقعاً قائماً يجب علينا إلغاء الحرية الفردية با لكامل. والله سبحانه وتعالى وحسب خطته فى الخلق لن يقضي بإلغاء الحرية الفردية تحت أيّ ظرف.

إنّ تلك الطبيعة الخاصة للوجود البشري على هذه الأرض يشرحها القرآن الكريم بقول: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾، (سورة الأحزاب 72).

«الأمانة» فى الآية السابقة تشير إلى حريّة الإختيار التى أوتمن عليها بنى آدم، ولا تمتلك السماوات والأرض مثل هذه الإرادة الحرة، وليس لها أيّ مشيئة مستقلة. فهما مجبرتين على الإنصياع للقوانين والسنن الطبيعية التى سنها الله الدائم الحيّ لهذا العالم. بينما

الإنسان لا تسري عليه مثل هذا الإجبار أوالإكراه. ويتمتع بكامل الحرية قولاً وفعلاً.

تخبرنا آية قرآنية أخرى أنّ حكمة الله في الخلق اقتضت بأنّ الأمر البالغ الأهمية في هذه الحياة الدنيا ليس بناء «الدولة الفاضلة» بل بناء الأفراد المثاليين: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا وهو العزيز الغفور**﴾، (سورة الملك 2)

إنّ الدولة الفاضلة لا تظهر للوجود في هذه الحياة الدنيا، بل في الحياة الآخرة والتى أشار إليها القرآن بـ(دار السلام). ذلك أن العقبة الفعلية لبناء الدولة فى الحياة الدنيا هي وجود أناس متمردين ومتكبرين في كل مكان، بينما في عالم الجنة فى الحياة الآخرة سيعزل الأشخاص ذوي الأفعال الشريرة عن الناس الطيبين. ليضم عالم الجنة فى الآخرة تلك الأرواح الطاهرة، ففى عالم الجنة فقط يصبح ممكناً إيجاد «الدولة الفاضلة».

إنّ خطأ التفكير لدي الفلاسفة والعلماء اللادينيين، يرجع إلى رغبتهم فى إيجاد عالماً مثالياً فى هذه الحياة الدنيا، بينما المجتمع الذي يتماشى مع تدبير الله للأمورسيصير حقيقة فقط فى الحياة الآخرة.

إنّ العقبة الكاداء لظهور الدولة الفاضلة هي إطلاق الحرية الفردية، التي لا يمكن إلغاؤها بالنظر لوجود اختبار إلهيّ للبشرية حسب الخطة الإلهية، لذلك ستظل المدينة الفاضلة أوالمجتمع الفاضل حلم يتعذّر تحقيقه.

وفقا للنص القرآني، فقد تم إعلان وايضاح تلك الحقيقة وبكل جلاء فى الحياة الدنيا، و يبقى الأمر رهين با لإنسان للقبول بها أورفضها.

قال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (سورة الكه 23)

وفي موضوع آخر يذكر القرآن الكريم: ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء الله لهداكم أجمعين﴾ (النحل9)

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (سورة هود 118 – 119)

إنّ تلك الحرية التى ضمنها الخالق جل وعلا للإنسان في الحياة الدنيا، تفسر لنا العجز الحاصل لإيجاد مجتمع متحد ومنسجم بالكامل على مر التاريخ البشري. إنه فى الوقت الذي يضم المجتمع أناسًا طيبين، يقابلهم أشخاصاً أشراراً، إن هذا الأمر لن يتوقف أبدا ليحصل خلاف ذلك، وحتى المجتمعات التى أقامها الأنبياء لم تسجل استثناءًا ولن يكون المجتمع المثالي ممكناً حتى مع وجود أفراد طيبين فى الحياة الدنيا. لكن على رغم من ذلك كله، فإن هذا الأمر لا يعد عيباً. فالحقيقة إنّ تكرار الإضطرابات والقلاقل داخل المجتمع أمر أساسي يتفق مع الحكمة الإلهية للخالق، مع أن تلك الأحول أوالأوضاع غير مرغوبة من أولئك الأشخاص الطيبين ذوي النفوس الرفيعة السامية.

يخبرنا القرآن الكريم إنّ الإنسان ولد في مشقّة وضنك، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ (سورة البلد 4)، ويخاطب الجنس البشري بالقول: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾، (سورة الأعراف 24) لبيان حقيقة أن الإنسان لا خيار بديل له عن العيش فى الحياة الدنيا التي تجمع بين الإختبار والمعاناة والخصومة والعداوة حتى يوم القيامة.

أنّ هـذا الوضـع الإنسـاني في الحيـاة الدنيـا ليس وليـد الصدفة، بل هـو اتفـاق كامـل مع الخطـة والترتيب الإلهـي لمجريات الحيـاة الدنيا، فالله سـبحانه وتعـالى خلـق هـذه الحيـاة الدنيـا لاختبـار وامتحـان أولئـك الأفـراد الجديريـن بالعيش فى الجنـة، فأهل الجنة هم أشـخاصاً فى منتهـى الروعـة والألتـزام بالحـق، فهم أصحـاب مبـادئ وقيم، وهم نتاج لظروف اسـتثنائية وليسـوا نتـاج لظروف وأحـوال عادية محايدة.

ومـن أجـل ذلـك، يتوجـب عـلى الإنسـان الإسـتمرار فى مواجهـة ظـروف غـير مرغوب فيها سـعياً للاصطفـاء، إنّ أمثال أولئك الأشـخاص هـم المطلوبـين، ويذكـر القـرآن الكريـم ذلـك الأمـر بالقـول: ﴿**آلم أحسـب النـاس أن يتركـوا أن يقولـوا ءامنّـا وهم لا يفتنـون ولقد فتنّا مـن قبلهـم فليعلمـنّ الله الّـذين صدقـوا وليعلمنّ االكذبين**﴾، (سـورة العنكبـوت1 – 3).

﴿**أم حسـبتم أن تدخلـوا الجنـة ولمّـا يأتكم مثـل الـذين خلو من قبلكم مسـتهم البأسـاء والـضرّاء وزلزلـوا حـتى يقـول الرسـول والذين ءامنـوا معـه متى نـصر الله ألا إنّ نـصر الله قريب**﴾، (سـورة البقرة 214).

ويتواصـل التوجيـه القـرآني عـلى ذات المعنـى فى موضـع آخـر فى قـول:{**أم حسـبتم أن تتركـوا ولمّـا يعـلم الـله الـذين جاهـدوا منـكم ولم يتخـذوا مـن دون الـله ولا رسـوله ولا المؤمنـين وليجـة والـله خبير بما تعملـون**}، (سـورة التوبـة 16).

إنّ المطلـوب الحقيقـي فى هـذا العـالم عنـد اللـه تعـالى ليـس المجتمـع الفاضـل أو الدولة الفاضلة بل الإنسـان الفاضـل، وكما يعلمنا القـرآن الكريـم فى قوله تعالى:﴿**هنالـك ابتلى المؤمنـون وزلزلوا زلزالاً**

شديداً﴾، (سورة الأحزاب 11). ذلك أنّ أولئك الأفراد الصالحين الفاضلين هم نتاج للابتلاء والمعاناة القاسية، وليسوا نتاج لظروف سلمية عادية محايدة.

إنّ الله تعالى لينظر بعين الرضا لأولئك الأشخاص الذين نشوا في خضم الأفكار والنظريات والإيديولوجيات، وتمتعوا بالقدرة على تميز الحق، ودأبوا على التمسك به، أمثال هؤلآء الأشخاص يمنحهم الله تعالى القبول نظير إيمانهم الراسخ فى وجه كل المحن العاتية والشدائد المزلزلة، فلا يخالط قلوبهم الدوافع والأحاسيس السلبية. حتى وهم عرضة لكل أنواع الاضطهاد والمضايقة. ويتحلون بالشجاعة والإقدام عندما تلوح فى الأفق بوادر الكوارث والنكبات. بل إنهم يصمدون فى وجه ذلك كله ويعملون على ابتكار الحلول الناجعة، ممّا يطور قدراتهم الذهنية والعقلية والإدراكية. أولئك الأشخاص يظلون أوفياء ومخلصين لإيمانهم بالله تعالى، عندما تواجههم أحداث قاسية وغير مؤايتة لتدفع بهم للإنحراف عن الصراط المستقيم.

إنّ أولئك الأشخاص لا يعترهم الاحباط عند ما تلوح نذر المصائب والجوائح، بل يتخطون الاضطرابات الكبيرة، بإيقاظ المعاني الروحية فى قلوبهم، ويصبحون أكثر قرباً من الله تعالى.

إنّ الإنسان الأكثر قبولاً من الله تعالى، جدير بالعيش في عالم الجنة المثالي والطاهر، إنّ مثل هذا الإنسان المتميز شكل ظاهرة فريدة، هي الأهمّ من بين كل الأشياء العظيمة في هذا الكون، وسينعم بحياة أخرى جديدة، فلقد ولد في ضنك العيش، وواجه الظلمات في هذه الحياة الدنيا، لذلك سيعيش في النور الأبدي فى الآخرة. لقد عانى الحرمان والخسارة فى الحياة الدنيا. ولهذا سيمنح

السعادة والبهجة في الحياة الآخرة. لقد سلك طريقاً محفوفاً بالأشواك، لقد تحمل بفارغ الصبر الحرمان من المتع والملذات الدنيوية، وذلك سيؤهله لولوج جنة الخلد النعيم الأبدي.

إنّ تلك الأنفس الغالية لن تخرج من الفراغ، ولا يتأتى لها أن ترتقي في وسط اجتماعي محايد أيا كانت درجة قربه من المجتمع الفاضل، بل إنها تظهر في خضم الصراع والعداوة ولا توجد بيئة وأرضية بديلة لظهورها.

إنّ ما يطلق عليه الفلاسفة بأنه شر اجتماعي ما هو إلا الأرضية أوالمجال التدريبي المصمم من الخالق عز وجل لا نتاج أناس ذوي خصائص روحية عالية (سامية) وأخلاقية رفيعة. ولذلك الغرض واجهت البشرية كل أنواع الصراعات والخصومات في كل مراحلها التاريخية.

إنّ المؤمنين المتقين وأصحاب الفضيلة والشرفاء وخاصة الأنبياء يجدون أنفسهم في أوضاع غير ملائمة، وهناك حديث نبوي يصف تلك الحقيقة:«إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه.»

وتلك الأوضاع غير الملائمة لا تختصّ بالمجتمعات غير المسلمة وحدها، بل هي جزء من المجتمعات المسلمة أيضا. لقد تعرض الأنبياء لإضطهاد شديد من معاصريهم من الوثنيين والمكذبين منذ القدم.

من خلال القرآن الكريم نعلم أنّ نبيّ الله موسى عليه السلام، هدد -بشكل ما – با لآذى النفسي والجسدي، رغم أنّه بعث وسط أهل الكتاب اليهود، قال تعالى: (**يآ أيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسى فبرأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيها**)، (الأحزاب 69).

لقد أقام النبيّ صلى الله عليه وسلم دولة منظّمة بصورة رائعة في جزيرة العرب عرفت فيما بعد بالخلافة الراشدة، وقد توالى على حكمها أربعة خلفاء راشدين، ولكن حتى خلال تلك الفترة المثالية في تاريخ الإسلام ظلت الدولة تعاني مشاكل خطرة متنوعة، بل إنه لم تتواجد عبر التارخ أيّ دولة إسلامية يمكننا اعتبار أنها قد احتضنت المسلمين في حالة سلام ووائم دائم.

إنّ هذا الأمر لا يعزى لأي قصور في الدولة الإسلامية، ولكنها لضرورات أيجاد أرضية اختبار وحقل تدريبي، وضعت من الخالق نفسه لبلوغ الرقي والالتزام الأخلاقي لبنى البشر. وكما سبق وذكرنا ليس من تدبير الله تعالى وجوب بناء مجتمع فاضل في هذه الحياة الدنيا يحيا فيه الناس حياة سلام تام، فطبقاً لتدبير الله للأمور إنّ الأولوية تكمن في اعداد وبناء الأفراد، وهو الأمر الذي يتعذر انجازه في مناخ أمن ومسالم، بل يتم في خضم الإضطرابات والفوضى.

في عالم الحاضر، نجد أنفسنا على المستوى الوطني والطائفي، نفتقر لمصادر مادية ومعنوية، لبناء مجتمع على مستوى رفيع، لكننا نمتلك الوسائل لبناء شخصية نموذجية لدى الأفراد، وهذا الواقع القائم هو ما يتطلبه تدبير الله وغايته في الخلق. والتى تولى الإهتمام ليس لبناء المجتمعات الإلهية ولكن لبناء الأفراد الربانيين الملائمين للعيش في مجتمع الجنة المثالي. بالنظر إلى مصطلح «المدينة الفاضلة» فإن التاريخ الإسلامي يقدم جوانب سلبية ومظلمة، ولكن النظر لمصطلح «الإرتقاء بالأفراد» فإن ذات التاريخ يظهر جوانب مشرفة وغاية في الإيجابية.

إنّ المجتمع المثالي اوالدولة الفاضلة لم تظهر أبدا إلى حيز الوجود عبر التاريخ الإسلامي ولكن لم يكن هناك أبداً نذرة فى أفراد ذوي خصائص إخلاقيه روحية عالية. حقا، إنّ سجلات التاريخ فقيرة فيما يتعلق بالمجتمعات الفاضلة لكنها صفحات مشرفة لأفكار وكلمات وأفعال أشخاص فاضلين.

الشيخ وحيد الدين خان

الشيخ وحيد الدين خان (مواليد 1925م)، مؤسس مركز التزكية والسلام العالمي، هو عالم متضلع في كل من التعليم الديني التقليدي والمعارف العلمية العصرية، ولقد كرس حياته سعياً منه لمعالجة القضايا المعاصرة المتعلقة بالدين الإسلامي وتقديم الإسلام في مصطلحات ولغة عصرية.

ومن أجل شرح الإسلام بلغة علمية معاصرة قام الشيخ وحيد الدين خان بترجمة معاني القرآن الكريم للغة الأردية مع تفسير للقرآن بعنوان « تذكير القرآن». ذلك التفسير الذي ترجم ونشر بعدة لغات الأنجليزية والعربية و الهندية والماراتية، كذلك، ويتميز جهد الشيخ بأنه تمكن من وضع ترجمة معاني القرآن الكريم بلغة أنجليزية معاصرة وسهلة الفهم. و لقد تم إعادة الترجمة إلي 23 لغة عالمية وهندية حتى الآن. وأسس الشيخ وحيد الدين خان مؤسسة تبليغ القرآن الكريم تحت رعاية مركز التزكية والسلام العالمي، لنشر رسالة القرآن الكريم والإسلام.

كتب الشيخ وحيد الدين خان: قام الشيخ بتأليف أكثر من مائتي كتاب وكتيب ونشرة، حول الإسلام في العصر الحديث،

والحكمة النبوية والتعايش السلمي، و موقف الإسلام من الحرب والسلم، وسبل مواجهة التطرف، ويعد كتابه « الله يتجلى»، الذي يقدم الدليل العلمي والعقلي للقبول بفكرة «وجود الله»، معياراً للموقف الإسلامي من الفكر الحديث، و لأهميته تم إدراجه ضمن مقررات الجامعات في العديد من الدول العربية، وترجمته العربية طبعت تحت مسمى: «الإسلام يتحدي»، وهو كتاب معروف وواسع الانتشار في العالم العربي، وتم ترجمة «الإسلام يتحدي» ونشره إضافة للغة الأنجليزية والعربية إلى الماليزية و التركية والهندية ومالايالامية والسندية.

أمّا في كتاب: «الحكمة القرآنية» فقد بين الشيخ وحيد الدين خان أن القضية الأساسية هو معرفة «خطة الله من وراء الخلق»، وقد تناول فيه آيات من القرآن الكريم، يستخلص منها الحكمة، ويرشد القرّاء إلى العمل وتطبيق تلك المبادي في حياتهم. ومن ضمن كتبه المهمة الأخرى: رسول السلام ، والجهاد الحقيقي، وعقيدة السلام، و رؤية الإسلام، و إعادة اكتشاف الإسلام، و القرآن الكريم لكل الإنسانية، والقرآن الكريم المعجزة الخالدة. ولقد زار الشيخ وحيد الدين خان أرجاء كثيرة من العالم في مناسبات عدة وكتب الكثير من المقالات في الصحف والمجلات المحلية والدولية وألقى الآلاف من المحاضرات باللغة العربية والأردية والأنجليزية.

يهدف هذا الكتاب إلى إعادة هندسة عقول أولئك الذين يفكّرون بمصطلحات العنف، الكتاب له هدف ذو شقين:
أولا: مساعدة المتورطين في أعمال العنف على إدراك أن هذا العصر هو عصر السلام.
ثانيا: يشرح المؤلف تلك المبادئ التي يجب أن تحكم وتقيد أعمال الراغبين في إقامة السلام في المجتمع.

المنهج العملي للسلام ينتج عنه التواضع والعكس الصحيحة، فمن يمارس العنف عاجلا ما يصبح متكبرا متعجرفا. إن قتل الإنسان ليس مساويا لقتل الحيوان، قتل إنسان مساو لقتل الإنسان لنفسه، لا حاجة للحكمة لممارسة العنف فكلّ إنسان غبيّ يمكنه فعل ذلك ولكن إقامة السلام والحفاظ عليه يتطلب قدر كبير من الحصانة والتخطيط، كل إنسان حباه المولى بخصائص فريدة وليس من خطة الله في الخلق أن يعيش الإنسان ليقاتل ويقتل، السلام تربة المجتمع باستصلاحها نجني ثمار العدالة الاجتماعية، وكما إنه ليس من الممكن إن نجني الثمار من التربة مباشرة كذلك ليس من الممكن أن نشنق العدالة الاجتماعية من السلام مباشرة، وفقا لتعاليم الإسلام لايوجد مجال للشك في حقيقة من يقتل من المسلمين في عمليات انتحارية يموت على غير هدى الإسلام وتعاليمه وليس لهم جنة في الانتظار لترحب بهم.

مولانا وحيد الدين خان: هو مؤسس مركز السلام والروحانية في مدينة نيودلهي وهي منضمة عالمية تهدف إلى تقديم الإسلام كونه أيديولوجية متكاملة للسلام ومن مؤلفاته كتاب، رسول السلام والحكمة القرآنية والإسلام والسلام العالمي، كما ألّف العديد من الكتب الإسلامية الأكثر مبيعا.
وحيد الدين خان: عُرف على مستوى عالمي بمساهمته من أجل إحلال السلام العالمي.

9 789938 599220